لَطَائِفُ الدُّرَرِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الزُّمَرِ

الأستاذ الدكتور

عبدُالحميدِ محمود البَطَاوِيُّ

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وبعد؛

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها،وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فهذا تفسير تحليلي لسورة "الزمر" قد مّن الله تعالى عليّ بأن شرفني بإتمامه، وهذا عمل عظيم الخطر بيد أنه عظيم الأثر، والمرء بين الخوف والرجاء في نيل الثواب وخوف العقاب، ولست بدعا في هذا التأليف، فأخذت حذري، وتوكلت على ربي، ونهلت من أساتذتي، وراجعت التفاسير وعشت مع الأئمة النحارير، وجمعت درراً من كتب التفاسير، فسهل الخطب وأعانني الرب، ولم أناقش الأئمة الأعلام بل ذكرت الراجح وأضربت صفحا عن المرجوح، ونقلت الصحيح وأغفلت الضعيف إلا ما احتاج إلى بيان أو توضيح. وما ذكرته من إعراب فهو لبيان المعني وللتدريب على الإعراب، وما ذكرته من تفسير الآيات مما لم أشر إلى مصدره فهو مما كثر نقله بين أئمة التفسير مما يعرف من سياق الآيات أو تطبيق قواعد التفسير عند الأئمة. فنجد نفس العبارة عند أكثر المفسرين من غير إشارة إلى قائلها كما فعل أبو السعود، والشهاب، والشوكاني، والألوسي، وقد قسمتها إلى عدة مواضيع تحت كل موضوع مجموعة من الآيات، وقد تحدثت باختصار عن بعض المواضيع الخاصة لمناسبة ذكرها في السورة الكريمة كالصبر والتوبة...

والله المستعان وعليه التكلان

بين يدي السورة

اسمها:

"الزمر" بفتح الميم، وهو الموافق لنطق "الزمر" في السورة، ولنطقها في متن الشاطبية؛ ولكن أكثر القراء في الكتاتيب المصرية ينطقونها بضم الميم، ونجد كثيرا من المصاحف كتبتها بضم الميم، وأشهرها مصحف الملك فؤاد الذي راجعه الأئمة الأعلام، ولم أجد فيما لدي من مراجع في التفسير أو المعاجم ما يؤيد ذلك، وقد يكون ذلك جمع "الزمر"، أي: جمع الجمع فتشمل زمر أهل الجنة وزمر أهل النار، ولكن جمع الجمع سماعي لا يقال بالقياس.

وتسمى أيضا سورة "الغرف" لقوله تعالى (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ).

فضلها:-

أخرج النَّسائي عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة "بني إسرائيل" و"الزمر"[1].

مكان نزولها:-

[1] رواه أحمد ٦٨/٦، ١٢٢/٦والنسائي في الكبرى ٤٤٤/١٠، والترمذي ٤٧٥/٥والحاكم ٤٣٤/٢ .أما سند النسائي قال: أخبرنا محمد بن النضر بن مساور قال: حدثنا حماد عن مروان أبي لبابة عن عائشة وهو إسناد حسن . ١) محمد بن النضر بن مساور المروزي صدوق (التقريب صـ٥١٠ ، ٢)حماد بن زيد بن درهم الأزدي البصري أبو إسماعيل قال ابن حجر : ثقة ثبت فقيه (الجرح ١٣٧/٣ – التقريب صـ١٧٨) ٣) مروان أبو لبابة البصري مولى عائشة (التقريب صـ٥٢٦–التهذيب ٩٩/١٠)

عن ابن عباس أنها أنزلت بمكة ولم يستثن وهو الأَولى. وروى عن ابن عباسأيضا أنه قال:نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ)إلى ثلاث آيات وعن بعضهم إلا سبع آيات من قوله سبحانه ((قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا إلى آخر السبع [1].

قال القاسمي:وهي مكية...ولا حاجة لدعوى الاستثناء فيها وفي نظائرها لأن ذلك مبني على أن المراد بالنزول أن الواقعة كانت سببا لنزولها مع أن النزول في الآثار يشمل ذلك وكل ما تصدق عليه الآية[2].ورجح ابن عاشور مكيتها قال و ما نشأ من القول بأنها مدنية إلا لما روى فيها من القصص الضعيفة[3].

عدد آياتها:-

وخمس وسبعون في الكوفي وثلاث في الشامي واثنتان حجازي[4].

وجه المناسبة بينها وبين سورة (ص) :-

([1]) ابن أبي حاتم ٢٧٣١/٨ من طريق حجاج بن أرطأة عن عطية العوفي عن أبي سعيد وإسناده ضعيف حجاج بن أرطأة ضعيف ومدلس و عطية العوفي ضعيف وقال الهيثمي فيه أبين بن سفيان ضعفه الذهبي مجمع الزوائد ١٠١/٧ قال الطاهر ابن عاشور :وسنده ضعيف وقصته عليها مخائل القصص ٣١١/٢٣.

([2]) المحاسن: ١٤ / ٤٩٩٠ ، ١٤ / ٥١٢٦

([3]) التحرير: ٣١١/٢٣

[4] شرح طيبة النشر في القراءات العشر لأبي القاسم النويري ١٩٦/٥حقق وروجع بإشراف لجنة إحياء التراث الإسلامي بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر وهو من إصدارات المجمع سنة١٤١١ -١٩٩٠

قال سبحانه في سورة (ص) (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) وقال في هذه السورة (تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ)فلو أسقطت البسملة لاتحد الكلام.وفي بداية سورة ص دعوة إلى الوحدانية وبتلك الدعوة بدئت سورة الزمر،كما أنه تعالى ذكر في آخر سورة(ص)قصة خلق آدم وذكر في صدر هذه قصة خلقه و خلق زوجه وخلق الناس وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقا من بعد خلق ثم ذكر أنهم ميتون ثم ذكر سبحانه القيامة والحساب والجنة والنار وختم بقوله سبحانه(وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ)فذكر جل شأنه أحوال الخلق من المبدأ إلى آخر المعاد متصلا بخلق آدم عليه السلام المذكور في السورة قبلها.

أغراضها:-

ومدار هذه السورة الكريمة على الأمر بالعبادة والإخلاص والتحذير من الكفر والمعاصي؛فإثبات وحدانية الله والدعوة للإخلاص في عبادته هو الأساس المكين لهذه السورة.كما جاء في تضاعيفها التنويه بالقرآن و إعجازه و إبطال دعاوي المشركين وإرشاد العباد إلى الشكر والتقوى وقيام الليل وتعلم العلم والصبر والتوبة والترغيب في الجنة والترهيب من النار فالسورة حياة للإنسان من نشأته إلى أن يلقى الله يوم القيامة،لذا كثر التقابل فيها :بين المؤمنين والكافرين والموحدين والمشركين و الطائعين والعاصين والشاكرين والجاحدين و المقبلين والمعرضين وأهل الجنة وأهل النار...وكثر تكرار الأدلة وكثر تَكرار المواعظ وتكرار الأوامر والنواهي.

بين المؤمن المخلص و الكافر المشرك

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقّ فَاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصاً لّهُ الدّينَ (٢) أَلاَ لِلّهِ الدّينُ
الْخَالِصُ وَالّذِينَ اتّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرّبُونَآ
إِلَى اللّهِ زُلْفَىَ إِنّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنّ
اللّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ (٣) لّوْ أَرَادَ اللّهُ أَن يَتّخِذَ
وَلَداً لاّصْطَفَىَ مِمّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهّارُ (٤) خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِالْحَقّ يُكَوّرُ اللّيْلَ عَلَى
النّهَارِ وَيُكَوّرُ النّهَارَ عَلَى اللّيْلِ وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ
يَجْرِي لأجَلٍ مّسَمّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مّن
نّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ الأنْعَامِ ثَمَانِيَةَ
أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمّهَاتِكُمْ خَلْقاً مّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي
ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاّ إِلَـهَ إِلاّ هُوَ فَأَنّىَ
تُصْرَفُونَ(٦)

اللغة والإعراب :-

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ) ١- مبتدأ و من الله الخبر-أي نزل من الله-.وهذا أوْجَه٢- أو يكون خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل،و من الله متعلق بـ(تنزيل) أو متعلق بمحذوف على أنه حال من الكتاب.

و تنزيل: مصدر نزّل المضاعف والمراد به معناه المصدري أي إنزال القرآن كائن وحاصل من الله لا من غيره؛ردا على من زعم غير ذلك و حثا على امتثال أوامره و اجتناب نواهيه و مراعاة حقه.

(إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ):ملتبسا بالحق؛ فالباء تفيد الملابسة وتسمى باء المصاحبة و باء الإلصاق فهذه مترادفات في الدلالة على هذا المعنى قال سيبويه: الإلصاق لا يفارق الباء وإليه ترجع تصاريف معانيها[١].أو الباء سببية متعلقة بالإنزال أي:أنزلناه بسبب الحق أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله بيان لكونه نازلا بالحق، ويجوز أن تتعلق بمحذوف هو حال من الفاعل أي متلبسين بالحق أو من المفعول :أي متلبساً بالحق.

وجملة (أَلاَ لِلّهِ الدّينُ الْخَالِصُ):استئناف[٢] مقرر لما قبله من الأمر بإخلاص الدين له عز وجل ووجوب الامتثال به.

مُخْلِصاً لّهُ الدّينَ: الدّينَ منصوب بمخلص لأن مخلصا اسم فاعل،ومخلصا حال من الضمير المستتر في (اعبد).

وَالّذِينَ اتّخَذُواْ :اسم الموصول مبتدأ،و اتخذوا صلته،و خبره (إِنّ اللّهَ يَحْكُمُ).

---

[١] التحرير والتنوير ١٤٧/١

[٢] يخص علماء البلاغة الاستئناف بالجملة التي تكون جوابا لسؤال ، فتفصل الثانية عن الأولى كما تفصل الجواب عن السؤال لما بينهما من الاتصال ، وهو ما يسمى – عندهم – بـ " شبه كمال الاتصال " ومعنى الاستئناف فيه أنه استئناف جواب ، وليس ابتداء كلام منقطع عن سابقه كما يشعر بذلك لفظ الاستئناف أما الاستئناف النحوي فهو الجملة المنقطعة عما قبلها(عدم تعلقها بها تعلقا صناعيا بإتباع أو إخبارا أو حالية سواء أكانت جوابا عن سؤال أم لا فالاستئناف عندهم أعم . (المغنى و عليه حاشية الدسوقي ٢ / ٤١ ، شرح السعد لتلخيص المفتاح ، و عليه حاشية التجريد : (٣ / ٢٣٥)

وقيل:الذين رفع بفعل مضمر تقديره وقال الذين اتخذوا وهم المتكلمون به وبما يليه.

مَا نَعْبُدُهُمْ :مقول لقول محذوف؛لأن النظم يقتضي ذلك؛إذ ليس في الكلام ما يصلح لأن يعود عليه نون التكلم ومعه غيره فتعين أنه ضمير عائد على المبتدأ،وهذا القول حال مبينة لكيفية إشراكهم وعدم خلوص دينهم أي اتخذوا قائلين: ما نعبدهم.

إِلاّ لِيُقَرِّبُونَآ : الاستثناء مفرغ من أعم العلل والمعنى والذين لم يخلصوا العبادة لله بل خالطوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تقريبا.القربى والمنزلة زُلْفَىَ: في موضع نصب مصدر مؤكِد على غير لفظ المصدر ملاق لعامله في المعنى أو حال مؤكدة[1].

سبحانه: مصدر من سبح إذا بعد أو أسبحه تسبيحا لائقا لأنه علم للتسبيح مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحا لائقا بشأنه تعالى.

يُكَوِّرُ: حال أو مستأنف. والتكوير طرح الشيء بعضه على بعض،يقال كَوّر المتاع إذا ألقى بعضه على بعض. وأصله من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها قال الراغب تكوير الشيء إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، فتكوير الليل والنهار أن يلحق أحدهما بالآخر، وقيل: تغشية كل واحد منهما صاحبه،وقيل: إدخال كل واحد منهما في صاحبه أي زيادة في هذا من ذلك أي يدخل هذا على هذا والمعاني متقاربة.[2].

---

[1] التبيان للعكبري ٢/٢١٤ مشكل إعراب القرآن٢/٦٣٠ النسفي ٤/٤٩ أبو السعود ٧ /٢٤١ الدر المصون ٩/٤٠٨ ، لسان العرب لابن منظور الطبعة الأولى دار صادر بيروت٩/٣٨ .

[2] المفردات صـ ٤٤٣ لسان العرب ٥/١٥٥

ألا :حرف تنبيه لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها والمعنى تنبهوا أيها العباد فالله هو الغالب الساتر لذنوب خلقه بالمغفرة.

ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) عطف على واحدة لأن-واحدة- في الأصل اسم مشتق فيجوز عطف الفعل عليه كقوله تعالى (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً) ويعتبر ماضيا لأن اسم الفاعل قد يكون للمضي إذا لم يعمل أي من نفس وحدت (ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) وهو الأرجح لسلامته من التقدير الذي هو خلاف الأصل.أو عطف على محذوف هو صفة ثانية لنفس أي من نفس واحدة خلقها ثم جعل منها زوجها.

(ثم) للتراخي الرتبي فيكون الثاني أعلى مرتبة من الأول أو العكس .

خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ):مصدر مؤكِد إن تعلق مِّنْ بَعْدِ بيخلقكم و إلا فغير مؤكد.

(فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ) متعلق بيخلقكم،ويجوز أن يكون بدلا من قوله تعالى فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ).

(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبّكُمْ)اسم الإشارة مبتدأ ولفظ الجلالة خبره(خبر أول) و ربكم خبر بعد خبر(خبر ثان)، له الْمُلْكُ:خبر (خبر ثالث)أو مستأنف (لاإِلَهَ إِلاّ هُوَ) خبر (خبر رابع [1]).

فَأَنّىَ تُصْرَفُونَ) الفاء لترتيب ما بعدها على ما ذكر من صفاته عز وجل فَأَنّىَ:فكيف.تُصْرَفُونَ:الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره،والمصروف هنا محذوف تقديره عن توحيده بقرينة(لآ إِلَهَ إِلاّ هُوَ)[1] .

---

[1] إرشاد العقل السليم ٢٤٣/٧

تأملات في الآيات البينات:-

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ)القرآن كله والجملة عليه تعليل لكونه ذكرا للعالمين أو لقوله تعالى (لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)، كما في سورة (ص).والتعريف فيه-أي الكتاب- للعهد، وهو القرآن المعهود بينهم عند كل تذكير و كل مجادلة،والتذييل بـ(الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) للتنبيه على ظهور أثريهما في الكتاب بتنفيذ أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع،ولبيان أن جميع ما فيه مبني على أساس الصفتين الكريمتين. أساس الحكم الباهرة قال سبحانه وتعالى(إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) أي غالب بالحجة لمن كذب به، غالب لبلغاء العرب ؛ إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه، غالب بالفضل لما سواه من الكتب ويكون حكيما مثل صفة منزله (وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ)والحكيم إما بمعنى الحاكم فالقرآن أيضا حاكم على معارضيه بالحجة و حاكم على غيره من الكتب السماوية بما فيه من التفصيل والبيان (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) وإما بمعنى المحكم المتقن وإما بمعني الموصوف بالحكمة؛فالقرآن مشتمل على الحكمة. وفي وصف (الحكيم) إشارة إلى أنه أنزله بالحكمة، (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ): شروع في بيان المنزل إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وما يجب عليه عقب بيان شأن المنزل(القرآن)وكونه من عند الله تعالى،وإعادة لفظ الكتاب من باب الإظهار في مقام الإضمار تنويهاً بشأنه،وتأكيدا لفضله، فالكتاب

[1] المفردات لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني تحقبق محمد السيد الكيلاني طبعة الحلبي ١٣٨١هـ ،١٩٦١ م مادة صرف صـ٣٠٢ ، التحرير والتنوير ٣٣٦/٢٣

هو عين الكتاب الأول لأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عينا[1]؛لذا ضُعف قول ابن عطية بأن الكتاب الأول عام لكل ما نزل من عند الله تعالى والثاني خاص بالقرآن[2].

هذا وقد قال سبحانه (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ) وفي السورة أيضا(إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقّ) فما الفرق بين أنزلنا إليك ، وأنزلنا عليك؟ والجواب: أن كل موضع خاطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بقوله (إِنّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ) ففيه تكليف،وإذا خاطبه بقوله(إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ) ففيه تخفيف،فالذي هنا(إليك)كلّفه الإخلاص في العبادة،والذي في آخرها(عليك)خفف عنه وختم الآية بـ(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) أي لست بمسئول عنهم فخفف عنه ذلك[3].

(إِنّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ)كل ما أودعناه فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق وصدق فكل ما فيه يجب العمل والمصير إليه[4] ، وقال الخطيب: إِنّآ بما لنا من العظمة ...تكرير تعظيم بسبب إبرازه في جملة أخرى مضافا إنزاله إلى العظيم نفسه[5].(لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (فصلت:٤٢).

---

[1] حاشية الصاوي: ٣٠٤/٣

[2] المحَرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبد الحي بن غالب بن عطية الأندلسي تحقيق عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية بيروت١٤١٣، ١٩٩٣ ج ٥١٧/٤

[3] البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان تأليف برهان الدين أبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني ص٢٣٢ تحقيق السيد الجميلي هدية مجلة الأزهر سنة ١٤١٤هـ

[4] مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي الناشر دار الغد العربي الأولى (١٤١٣-١٩٩٣)(٣٧٩/١٣)

[5] السراج المنير للخطيب الشربيني ٤٣١/٣ المعرفة بيروت

(فَاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصاً لّهُ الدّينِ) فاعبده تعالى عبادة خاصة طاهرة من شوائب الشرك والرياء كما دل عليه الكتاب الكريم الذي أُنزل إليك.وذكر الاسم الجليل-الله- ليلائم الترغيب في الإخلاص والدعوة إليه. أَلاَ لِلّهِ الدّينُ الْخَالِصُ) من كل شائبة وكدر،فهو الذي يجب أن تخلص له الطاعة،لاطلاعه على الغيوب والأسرار،ولخلوص نعمته على عباده من غير حصول منفعة منهم[1].

ومما يدل على الاعتناء بالدين الذي هو أساس كل خير

الإتيان بإلا،واسمية الجملة،وإظهار لفظ الجلالة،ووصف الدين بالخالص وإظهاره والتقديم المفيد للاختصاص مع اللام الموضوعة له. (وَالّذِينَ اتّخَذُواْ مِن دُونِهِ)فيه إثبات أحقية التوحيد ببطلان الشرك ليعلم منه حقية الإخلاص وبطلان تركه وفيه ترغيب للمخلصين وترهيب غيرهم.(وَالّذِينَ اتّخَذُواْ)هم المشركون من قريش وأضرابهم من عبدة غير الله سبحانه وهو الظاهر فيكون الأولياء عبارة عن كل معبود باطل كالملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام.

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرّبُونَآ إِلَى اللّهِ زُلْفَىَ) قال قتادة[2] : أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة. والضمير في نعبدهم راجع إلى الأشياء التي كانوا يعبدونها من الملائكة وعيسى والأصنام وهم المرادون بالأولياء، أي والذين لم يخلصوا

[1] البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ١٨٢/٩ طبع بعناية الشيخ عرفات العشا حسونة١٤١٢ ١٩٩٢دار الفكر بيروت

[2] عبد الرزاق: ١٧١/٣

العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره سبحانه قائلين ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تعالى قربى.

(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) أي وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه. فالله سبحانه وتعالى يفصل الخصومة بين المشركين والمخلصين فيما اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد والشرك فإن كل طائفة تدعى أن الحق معها؛فيحكم بينهم بإدخال المخلصين الموحدين الجنة وإدخال المشركين النار أو يميزهم تمييزا يعلم منه حال ما تنازعوا فيه.

وقيل:الضمير للفريقين المتخِذين والمتخَذين وكذا الكلام في ضميري الجمع في قوله تعالى(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) فيما هم فيه يختلفون والمعنى أنه تعالى يحكم بين العابدين والمعبودين فيما يختلفون حيث يرجو العابدون شفاعتهم وهم يتبرؤون منهم ويلعنونهم بلسان الحال أو بلسان المقال يحكم بينهم بإدخال الجنة من له أهلية دخولها من المعبودين كالملائكة وعيسى عليهم السلام وإدخال العابدين النار و ممن ليس له أهلية دخول الجنة من المعبودين كالأصنام وطواغيت الإنس والجن،

هذا والاختلاف متكرر متجدد بدلالة الفعل المضارع وهو ثابت لهم بدلالة اسمية الجملة حيث قدم المسند إليه على الخبر الفعلي [1].

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي) لا يرشد لدينه الذي هو طريق النجاة والفوز بالمطلوب ولا يوفق للاهتداء إلى الحق فالمنفي الهداية التكوينية لا الهداية بمعنى الإرشاد والتبليغ فالمراد نفي عناية الله بهم،أي العناية التي بها تيسير الهداية عليهم حتى

[1] التحرير و التنوير ٣٢٢/٢٣

يهتدوا أي لا يوفقهم الله بل يتركهم على رأيهم غضباً عليهم[1]. (مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) في زعمه أن الآلهة تقربه إلى الله وكفر باتخاذها آلهة وجعلها شركاء لله. والكَفّار صيغة مبالغة تدل على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية،وكاذب كفار في حد ذاته؛لأنه غير قابل للاهتداء والله عز وجل لا يفيض على القوابل إلا حسب القابليات،كما يشير إليه قوله سبحانه (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (طه:٥٠) وقوله عز وجل(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً)(الإسراء:٨٤) (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(النحل:١١٨).وقال الطبرسي لا يهدي إلى الجنة[2] أي يوم القيامة من هو كاذب كفار في الدنيا.والمراد بمن هو كاذب كفار من يعم أولئك المحدث عنهم وغيرهم وقيل:أولئك المحدث عنهم وكذبهم في دعواهم استحقاق غير الله تعالى للعبادة أو قولهم في بعض من اتخذوهم أولياء من دون الله إنهم بنات الله سبحانه أو أن المتخَذ ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فمن هو كاذب من الظاهر الذي أقيم مقام المضمر على معنى أن الله تعالى لا يهديهم أي المتخذين تسجيلا عليهم بالكذب والكفر و يكون تمهيدا لما بعده (لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْطَفَى).

(لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)استئناف مسوق لتحقيق الحق وإبطال القول بأن الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ببيان استحالة اتخاذ الولد في حقه سبحانه على الإطلاق

---

[1] التحرير و التنوير ٣٢٣/٢٣

[2] مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي دار مكتبة الحياة بيروت مجلد ٥ ج ١٣٧/٢٣

ليندرج فيه استحالة ما قيل اندراجاً أولياً(لاَّصْطَفَىَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ)؛إذ لا موجود سواه إلا هو مخلوقه لقيام الدلالة على امتناع وجود واجبين ووجوب استناد ما عدا الواجب إليه ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الوالد[١]،وحاصل المعنى١- لو[٢] أراد الله سبحانه اتخاذ الولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع وهو اتخاذ الولد،ولا يليق بالباري إرادة الممتنع؛لأنها ترجح بعض الممكنات على بعض، وجيء بقوله لاصطفى تنبيها على أن الممكن هذا لا الاتخاذ، فلو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز اتخاذ الولد عليه سبحانه وتعالى عن ذلك، فقد تحقق التلازم وحق نفي اللازم وإثبات الملزوم[٣]. وهذا شرط، لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه و زعموه كما قال عز وجل: (لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ)(الأنبياء: ١٧)و (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ)(الزخرف:٨١)كل هذا من باب الشرط ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم.

٢-ويجوز أن يكون المراد لو أراد الله أن يتخذ لامتنع ولم يصح لكن على إرادة نفي الصحة من باب(لو لم يخف الله لم يعصه) فلا ينفي الثاني إذ ذاك ولا يحتاج إلى بيان الملازمة وإذا امتنع ذلك فالممكن الاصطفاء،وقد اصطفى سبحانه من مخلوقاته من شاء كالملائكة وعيسى و الاصطفاء ليس باتخاذ

---

[١] البيضاوى٥/٥٨

[٢] قال الخفاجي : وتحقيق هذا أن لها استعمالات أ-استعمال أهل اللغة.١- وهو انتفاء الثاني لانتفاء الأول نحو ، لو كان لي مال أحسنت إليك ، ب-واستعمال أهل الاستدلال وهو٢- دلالة الانتفاء الثاني على انتفاء الأول نحو (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا) أو٣- دلالة تحقق الأول على تحقق الثاني نحو لو كان العالم حدثا لكان الصانع مختارا فهذه ثلاثة معان مشهورة لم يشتهر لكنه ورد في فصيح الكلام، وهو٤- ثبوت الجزاء على كل حال نحو نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه *الشهاب ١٧٨/٨.

[٣] الكشاف: ٣٨٧/٣ الشهاب ١٧٨/٨ ،والألوسي ٢٣/ ٢٣٧،٢٣٦

والجواب على هذا الوجه أيضا محذوف أقيم مقامه ما يفيد زيادة مبالغة وإنما لم يجعل لاصطفى هو الجواب عليه لصيرورة المعنى حينئذ لو أراد اتخاذ الولد لاصطفى من طريق الأولى وحينئذ يكون إثبات الاصطفاء هو المطلوب من الإيراد كما أن التمدح بنفي العصيان هو المطلوب[١].

وقال الشوكاني:هذا مقرر لما سبق من إبطال قول المشركين بأن الملائكة بنات الله لتضمنه استحالة الولد في حقه سبحانه على الإطلاق فلو أراد أن يتخذ ولدا لامتنع اتخاذ الولد حقيقة ولم يتأت ذلك إلا بأن يصطفى مما يخلق ما يشاء أي يختار من جملة خلقه ما يشاء أن يصطفيه إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له ولا يصح أن يكون المخلوق ولدا للخالق لعدم المجانسة بينهما فلم يبق إلا أن يصطفيه عبدا كما يفيده التعبير بالاصطفاء مكان الاتخاذ فمعنى الآية لو أراد أن يتخذ ولدا لوقع منه شيء ليس هو من اتخاذ الولد بل إنما هو من الاصطفاء لبعض مخلوقاته ولهذا نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق فقال(سبحانه) أي تنزيها له عن ذلك[٢].

٣-قال الصاوي :لو تعلقت إرادته باتخاذ ولد على سبيل الفرض والتقدير و الآية إشارة إلى قياس استثنائي حُذفت صغراه ونتيجته وتقريره (لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَىَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ) لكنه لم يصطفِ من خلقه شيئا فينتج أنه لم يرد أن يتخذ ولدا [٣].

[١] أبو السعود ٢٤٢/٧ الشهاب ١٧٨/٨

[٢] الوسيط: ٥٧٠/٣

[٣] حاشية الصاوي: ٣٠٥/٣ وأصله للنيسابوري ١٢٤/٢٣

وقوله تعالى (سبحانه)تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد في حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه سبحانه عنه أي تنزهه الخالص عن الولي والولد. (هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) استئناف مقرر لتنزهه مبين لتنزهه بحسب الصفات بعد تنزهه بحسب الذات أي هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد في ذاته فلا مماثل له القهار لكل مخلوقاته ومن كان متصفا بهذه الصفات استحال وجود الولد في حقه لأن اتخاذ الولد يقتضي المماثلة بين الولد والوالد ولا مماثل له سبحانه.

وكذا يقتضي تبعضا وانفصال شيء من شيء والوحدة الذاتية الحقيقية تأبى التبعض والانفصال إباء ظاهرا.و منافاة الوحدة الذاتية للتبعض والانفصال لاستلزامها التركب الخارجي، وكذا وصف القهارية يأبى اتخاذ الولد في ذلك١- لأن القهارية تقتضي الغنى الذاتي الذي هو أعلى مراتب الغنى وهو يقتضي التجرد عن المادة وتولد الولد عن الشيء يقتضيها٢- وقيل إن القهارية تقتضي كمال الغنى وهو يقتضي كمال التجرد الذي هو البساطة من كل الوجوه فلا يكون هناك ومادة وصورة وأعراض وأبعاض إلى غير ذلك مما يخل بالبساطة الكاملة الحقيقية واتخاذ الولد لما فيه من الانفصال والمثلية مخل بتلك البساطة فيخل بالغنى فيخل بالقهارية وقد أشار سبحانه إلى أن الغنى ينافي أن يكون له سبحانه ولد بقوله تعالى(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ)(يونس:٦٨) ٣- وقيل إن اتخاذ الولد يقتضي انفصال شيء عنه تعالى وذلك يقتضي أن يكون متأثرا مقهورا لا مؤثرا قهاراً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فحيث كان جل وعلا قهارا كما هو مقتضى الألوهية استحال أن يكون له عز وجل ولد. وآياته الكونية قال (سبحانه) (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضَ بِالْحَقّ) خلق هذا العالم المشاهد بالحق والصواب مشتملا على الحكم والمصالح (يُكَوّرُ اللّيْلَ عَلَى النّهَارِ وَيُكَوّرُ النّهَارَ عَلَى اللّيْلِ) بيان لكيفية تصرفه فيهما بعد بيان الخلق فمعنى تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه.ومعنى تكوير النهار على الليل تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته يذهب أحدهما ويغشى مكانه الآخر أي يلبسه مكانه فيصير أسوداً مظلماً بعد ما كان أبيضاً منيراً وبالعكس و لما كان أحدهما غاشيا للآخر أشبه اللباس الملفوف على لابسه في ستره إياه واشتماله عليه وتغطيه به.وهو معنى قوله تعالى (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً) قال قتادة: هو غشيان أحدهما على الآخر[1] وقال الضحاك أي يلقى هذا على هذا وهذا على هذا وهو مقارب للقول الأول،وقيل معنى الآية أن ما نقص من الليل دخل في النهار وما نقص من النهار دخل في الليل عن ابن عباس أن المعنى يحمل أحدهما على الآخر وفسر هذا الحمل بالضم والزيادة أي يزيد الليل على النهار ويضمه إليه بأن يحمل بعض أجزاء الليل نهارا فيطول النهار ويقصر الليل ويزيد النهار على الليل ويضمه إليه بأن يجعل سبحانه بعض أجزاء النهار ليلاً فيطول ويقصر النهار وهو معنى واضح والآية عليه كقوله تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ فِي وَيُولِجُ النَّهَارَ اللَّيْلِ). وقيل:إن هذا يكر على هذا وهذا يكر على هذا كرورا متتابعا و،الإشارة بهذا التكوير المذكور في الآية إلى جريان الشمس في مطالعها وانتقاص الليل والنهار وازدياد هما وصيغة المضارع للدلالة على التجدد (وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ) جعلهما منقادين

[1] عبد الرزاق ١٧١/٣

لأمره عز وجل(كُلّ يَجْرِي لأجَلٍ مّسَمّى)بيان لكيفية تسخيرهما أي كل منهما يجري لمنتهى دورته أو منقطع حركته.

قال الطبرسي : وفائدة الآية أن من قدر على خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر وإدخال الليل في النهار فهو منزه عن اتخاذ الولد والشريك فإن من قدر ذلك من صفات المحتاجين[1] . ومع تشدد الشهيد سيد قطب تجاه التفسير العلمي إلا أنه قال عند تفسير هذه الآية : (يُكَوّرُ اللّيْلَ عَلَى النّهَارِ وَيُكَوّرُ النّهَارَ عَلَى اللّيْلِ)وهو تعبير يقسر الناظر فيه قسرا على الإلتفات إلى ما كشف حديثا من كروية الأرض ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألا أحمّل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان ، لأنها نظريات تخطئ وتصيب، وتثبت اليوم وتبطل غدا. والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته ،ولا يستمدها من موافقة أو مخالفة لما يكشف البشر الضعاف المهازيل!

مع هذا الحرص فإن هذا التفسير يقسرنا قسرا على النظر في موضوع كروية الأرض. فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض.فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس؛ فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارا . ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور. وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار وهذا السطح مكور فالنهار كان عليه مكورا والليل يتبعه مكورا كذلك. وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل . وهكذا في حركة دائبة : (يُكَوّرُ اللّيْلَ عَلَى النّهَارِ وَيُكَوّرُ النّهَارَ عَلَى اللّيْلِ) :

[1] مجمع البيان للطبرسي :١٣٨/٢٣

اللفظ يرسم الشكل ويحدد الوضع ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها .وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيرا أدق من أي تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية[1] .

وفي الآية دليل على أن الشمس متحركة،حركة حقيقية -أثبتها العلم بسرعة مخصوصة قدروها بنحو اثني عشر ميلاً في الثانية[2].

يقول سبحانه:(لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). فكيف علم ذلك النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم،بأن الأرض والشمس والقمر يسبحان في الفضاء ،وهي معلومات فلكية لم تعرف إلا في القرن السادس عشر ، ومنها لم يعرف إلا في القرن العشرين.؟

أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّارُ) القادر على عقاب المصرين (الْغَفّارُ) لذنوب التائبين،ومغفرته تعالى لا تخص التائبين بل قد يغفر جل شأنه لغيرهم ولكن التقييد بالتائبين ليلائم ما تقدم .وهذا يناسب قوله تعالى (خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِالْحَقّ) من وجهين أحدهما:- ما فيه من الدلالة على كمال القدرة وكمال الرحمة المقتضى لعقاب المصر وغفران ذنوب التائب.

وثانيهما.- أن قوله تعالى(خَلَقَ السّمَاوَاتِ) الخ مسوق لأمرين[3] إثبات الوحدة والقهر المذكورين فيما قبل نفيا للولد؛بل حسما للشرك من أصله الحث على العبادة والإخلاص؛ لئلا يزول عن الخاطر فقيل بالحق كما قيل

[1] الظلال ٣٠٣٨/٥ للشهيد سيد قطب دار الشروق

[2] من مقال للدكتور محمد أحمد الغمراوي نشر بمجلة الأزهر السنة (٦٥) عدد رجب ١٤١٣ .

[3] الألوسي: ٢٣/ ٢٤٠،٢٣٩

هنالك(إِنّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ) وأدمج فيه أن إنزال الكتاب كما يدل على استحقاقه تعالى للعبادة فكذلك خلق السماوات والأرض بالحق والحكمة التي منها الجزاء على ما سلف.

فالتذييل بـ(أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّارُ)للترغيب في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص،والتحذير من خلاف ذلك سواء خالف أصل الدين كالكفر أو خالف الإخلاص فيه كسائر المعاصي في غاية الملاءمة،وإنما أفرد مخالفي الدين بالذكر صريحا في قوله تعالى (وَالّذِينَ اتّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ)تحذيرا من حالهم لأن تلك المخالفة هاتكة لعصمة النجاة فكانت أحق بالتحذير ورمز إلى هذا الثاني ب(أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّارُ) تكميلا للمعنى المراد

المعنى الثاني أي الغالب الذي يقدر أن يعاجلهم بالعقوبة وهو سبحانه يحلم عليهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى، فسمى الحلم غفرانا مجازا.والتذييل به لتوكيد تفظيع ما نسبوا إليه. ثم لما ذكر بعده عظيم ما نسبوا إليه سبحانه من الشرك والأولاد وما دل على تنزهه تعالى بالألوهية ناسب أن يذيله بقوله تعالى (أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّارُ) للتوكيد المذكور.

ويجوز ارتباط الآية بما بعدها من الخلق والتكوير والتسخير

وقوله تعالى (خَلَقَكُمْ مّن نّفْسٍ وَاحِدَةٍ) دليل آخر على الوحدة والقهر، وترك عطفه على خلق السماوات للإيذان باستقلاله في الدلالة ولتعلقه بالعالم السفلي والبداءة بخلق الإنسان لأنه أقرب وأعجب بالنسبة إلى غيره باعتبار ما فيه من العقل وقبول الأمانة الإلهية وغير ذلك حتى قيل

والمراد بالنفس آدم عليه السلام وقوله تعالى (ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) أي حواء أي من جنسها وهو اختيار أبي مسلم الأصفهاني و الرازي[1]والإمام محمد عبده كما في تفسير المنار[2]. والأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة الذي قال: و بالجملة لم يرد في خلق حواء من الضلع أي من ضلع آدم إلا مجرد إسرائيليات لا يعول عليها فإن كان و لابد من الاحتياط فلنقل : الله أعلم بحقيقة الحال علىكل حال[3].

ومن قرأ القرآن متجرداً من هذه الفكرة الإسرائيلية لم يخطر ذلك بباله.وما هذه الآية إلا مثل قوله تعالى (َمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) الروم :٢١،وقوله تعالى (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً) النحل :٧٢ فالمفهوم من هذه الآية وتلك :أنه خلق لنا من جنسنا أزواجا؛ لنسكن إليها،ونطمئن بها،ولا يفهم منها أحد بأن الله خلق المرأة من زوجها،أي من ضلعه أو من عضو من أعضائه[4]!!.

(وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) من الإبل والبقر والضان والمعز[5]. استدلال بنوع آخر من العالم الأرضي،قال ابن عاشور: استدلال بما خلقه الله تعالى من الأنعام عطف على الاستدلال بخلق الإنسان لأن المخاطبين بالقرآن يومئذ قوام حياتهم بالأنعام ولم تزل الحاجة إلى الأنعام حافة بالبشر في

[1] مفاتيح الغيب ٣٩٨/٧

[2] المنار ٢-٢٧٢ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣

[3] التفسير التحليلي لسورة النساء للأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة، الأولى ١٩٩٣ م ص ١٦٥

[4] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ د يوسف القرضاوي دار الشروق٢٥٦ ،٢٥٧

[5] الطبري:١٢٤/٢٣عن مجاهد و قتادة والضحاك

قـــوام حيـــاتهم . وهـــذا اعـــتراض بـــين جملـــة (خَلَقَكُـــمْ مّـــن نّفْـــسٍ وَاحِدَةٍ)وبين(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمّهَاتِكُمْ) لمناسبة أزواج الأنعام لزوج النفس الواحدة.وأدمج في هذا الاستدلال امتنان بما فيها من المنافع للناس لما دل عليه قوله "لكم" لأن في الأنعام مواد عظيمة لبقاء الإنسان وهي التي في قوله تعالى (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) إلى قوله (وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا) الخ في سورة النحل.

والإنزال : نقل الجسم من علو إلى سُفل ، ويطلق على تذليل الأمر الصعب كما يقال : نزلوا على حكم فلان ، لأن الأمر الصعب يتخيل صعب المنال كالمعتصم بقمم الجبال ، قال خصّاب بن المعلى من شعراءِ الحماسة :

أنزلني الدهر على حكمه * من شاهق عال إلى خفض

فإطلاق الإنزال هنا بمعنى التذليل والتمكين على نحو قوله تعالى " وأنزلنا الحديد" أي سخرناه للناس فألهمناهم إلى قينه يتخذونه سيوفا ودروعا ورماحا وعتادا مع شدته وصلابته .

ويجوز أن يكون إنزال الأنعام إنزالها الحقيقي ، أي إنزال أصولها من سفينة نوح كقوله تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا) أي خلقنا أصلكم وهو آدم ، وقال تعالى (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) فيكون الإنزال هو الإهباط قال تعالى (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ) فهذان وجهان حسان لإطلاق الإنزال ، وهما أحسن من تأويل المفسرين إنزال الأنعام بمعنى الخلق ، أي لأن خلقها بأمر التكوين ينزل من حضرة القدس إلى الملائكة [1] .

---

[1] التحرير :٢٣/ ٣٣٢

أو الإنزال: مجاز عن القضاء والقسمة فإنه تعالى إذا قضى وقسم أثبت ذلك في اللوح المحفوظ ونزلت به الملائكة الموكلة بإظهاره ووصفه بالنزول مع أنه معنى شائع متعارف كالحقيقة والعلاقة بين الإنزال والقضاء الظهور بعد الخفاء ففي الكلام استعارة تبعية وجوز أن يكون فيه مجاز مرسل ويجوز أن يكون التجوز في نسبة الإنزال إلى الأنعام والمنزل حقيقة أسباب حياتها كالأمطار ووجه ذلك الملابسة بينهما،والأنعام الإبل والبقر والضأن والمعز وكانت ثمانية أزواج لأن كلا منها ذكر وأنثى،وتقديم لكم من الأنعام على المفعول الصريح للاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر.(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ)بيان لكيفية خلق الأناسي والأنعام إظهارا لما فيه من عجائب القدرة وفيه تغليبان تغليب أولي العقل على غيرهم وتغليب الخطاب على التدرج والتجدد، (خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ) يخلقكم فيها خلقا مدرجا حيوانا سويا من بعد عظام مكسوة لحما من بعد عظام عارية من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة فقوله سبحانه (خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ)لمجرد التكرير كما يقال مرة بعد مرة لا أنه مخصوص بخلقين

(فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ) عن ابن عباس[1] قال : ظلمة البطن والرحم والمشيمة-بالفتح وهي الجلد الرقيق المشتمل على الجنين - (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ) اسم إشارة يدل على بعد منزلته العظيمة والكبرياء لأن ذلك إشارة للبعيد أي ذلكم العظيم الشأن الذي عددت أفعاله الله مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعدها ومالككم المستحق لتخصيص العبادة به سبحانه (لَهُ الْمُلْكُ)على الإطلاق في الدنيا والآخرة ليس لغيره تعالى شركة بوجه من

[1] رواه ابن أبي حاتم /٣٢٤٨ عن مجاهد٥٥٦/٢ وعن قتادة عند عبد الرزاق ١٧١/٣

الوجوه(لآ إِلَـٰهَ إِلاّ هُوَ)قال القرطبي في تفسير سورة البقرة (لآ إِلَـٰهَ إِلاّ هُوَ)هو نفي وإثبات أولها كفر وآخرها إيمان ومعناه لا معبود إلا الله وحكى عن الشبلى رحمه الله أنه كان يقول الله ولا يقول لا إله فسئل عن ذلك فقال أخشى أن آخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار. قلت وهذا من علومهم الدقيقة التي ليست لها حقيقة فإن الله جل اسمه ذكر هذا المعنى في كتابه نفيا وإثباتا وكرره ووعد بالثواب الجزيل لقائله على لسان نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والمقصود القلب لا اللسان فلو قال لا إله ومات ومعتقده وضميره الواحدانية وما يجب له لكان من أهل الجنة باتفاق أهل السنة [1] فَأَنّىٰ تُصْرَفُونَ: فكيف تصرفون عن توحيده وعبادته تعالى مع الدلائل التي ذكرت وما ذكر من دلائل موجباتها ودواعيها ولا صارف عنها كيف تصرفون إلى عبادة غيره سبحانه من غير داع إليها مع كثرة الصوارف عنها. والتعبير بالبناء للمجهول ولم يبين الصارف لبيان أنهم كالمقودين إلى الكفر غير مستقلين بأمورهم يصرفهم الصارفون فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا . و المراد بالدين في الآية العبادة و الطاعة أما ما روي عن قتادة من أنه شهادة أن لا إله إلا الله[2] وعن الحسن من أنه الإسلام فهما من أجل أنواع الطاعات، فقد فسراه بالمثال وقال الشوكاني:والدين العبادة والطاعة ورأسها توحيد الله وأنه لا شريك له[3].

---

[1] القرطبي ١٩١/٢ دار الشعب

[2] تفسير عبد الرزاق: ١٧١/٣

[3] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير الإمام الشوكاني ٤٤٨/٤ط دار الفكر بيروت

فقه الآيات:-

دلت الآيات المباركة على فوائد عظيمة يعرفها من أمعن التدبر فيها ولكننا نخص من فقهها بعض الحديث عن الإخلاص ففي الآية دلالة على شرف الإخلاص بالعبادة.

حديث عن الإخلاص

الإخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب.(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)(١١٠:الكهف)

(وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥ البينة).وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال النية فعَنْ أنس قَالَ: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ رجع مِنْ غزوة تبوك فدنا من المدينة فقَالَ: إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا وكانوا معكم.قالوا يا رسول الله،وهم بالمدينة؟ قال:وهم بالمدينة،حبسهم العذر[1] .وعَنْ أبي موسى الأشعري قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقال الرجل يقاتل حمية و يقاتل شجاعة ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل اللَّه؟ قال: من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه[2]. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ

---

[1] البخاري: كتاب المغازي باب نزول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الحجر٧/٧٣٢

[2] البخاري:كتاب التوحيد باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ١٣/٤٥٠

قَالَ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ،فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حسنةً كَامِلَةً.فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً[1].فالإخلاص أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه . وعن سفيان الثوري قال ما عالجت شيئا أشد على من نيتي لأنها تنقلب علي. وعن يوسف بن أسباط قال: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد. وقيل لنافع بن جبير ألا تشهد الجنازة قال: كما أنت حتى أنوي قال: ففكر هنيهة ثم قال: امض. وعن مطرف بن عبد الله قال: صلاح القلب بصلاح العمل وصلاح العمل بصلاح النية. وعن ابن المبارك قال:رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية.

وقال ابن عجلان لا يصلح العمل إلا بثلاث التقوى لله والنية الحسنة والإصابة.وقال الفضيل بن عياض:إنما يريد الله عز وجل منك نيتك وإرادتك[2]. قال الفُضيل بن عِياض: تركُ العمل لأجل الناس رياءٌ، والعمل لأجل الناس شِركٌ، والإخلاصُ أن يعافيَك اللّه منهما. وقال الإمام الحارث المحاسبيُّ رحمه اللّه: الصادق هو الذي لا يُبالي لو خرج كلُّ قَدْرٍ له في قلوب الخلق من أجل صَلاح قلبه، ولا يحبُّ اطّلاع الناس على مثاقيل الذرِّ من حسن عمله ولا يكرهُ أن يطلعَ الناسُ على السيئ من عمله. وعن حُذيفة

[1] البخاري:كتاب الرقاق باب من همَّ بحسنة أو بسيئة ٣٣١/١١. ومسلم من إذا همَّ العبد بحسنة أو بسيئة.٣٣١/١١

[2] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي: صـ ١٣ ،١٤ الناشر دار الريان للتراث ١٤٠٧ ، ١٩٨٧

المرْعشـيِّ رحمـه اللّـه قـال: الإِخـلاصُ أن تسـتوي أفعـالُ العبـد في الظـاهر والباطن.

وقـال أبـو القاسـم القُشَـيريّ رحمـه اللّـه قـال: الإِخـلاصُ إفـرادُ الحـق سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد، وهو أن يُريد بطاعته التقرّب إلى اللّه سبحانه دون شيء آخر: من تَصنعٍ لمخلوق، أو اكتساب محمَدةٍ عند الناس، أو محبّة مدحٍ من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرّب إلى اللّه تعالى.

وقال سهل بن عبد اللّه التُستَريُّ رضي اللّه عنه: نظر الأكياسُ في تفسير الإِخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن يكون حركتُه وسكونه في سرِّه وعلانيته للّه تعالى، ولا يُمازجه نَفسٌ ولا هوىً ولا دنيا.وقال أبو علي الدقاق رضي اللّه عنه قـال: الإِخـلاصُ: التـوقِّي عـن ملاحظـة الخلـق، والصـدق: التنقِّـي عـن مطاوعة النفس، فالمخلصُ لا رياء له، والصادقُ لا إعجابَ له.

وقال ذو النون المصري رحمه اللّه : ثلاثٌ من علامات الإِخلاص: استواءُ المدح والذمّ من العامَّة، ونسيانُ رؤية الأعمال في الأعمال، واقتضاءُ ثواب العمل في الآخرة[1]. قال مالك بن دينار: منذ عرفت الناس ما أبالي من حمدني ولا من ذمني، لأني لا أرى إلا حامداً مُفْرِطاً، أو ذامًّا مفَرِّطاً.[2] وقال عبيد الله بن أبي جعفر، وكان أحد الحكماء، قال: إذا كان المرء يحدث في مجلس، فأعجبه الحديث، فليمسك.وإذا كان ساكتا، فأعجبه السكوت، فليتحدث.[3]. وليس معنى الإخلاص أنك تُحرم من خير الدنيا بل ستأتيك

[1] الرسالة القشيرية صـ١٦٢ ، الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ للإمام محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي مكتة التنبي القاهرة صـ٥ ،٧

[2] الزهد للبيهقي صـ١٠١

[3] النبلاء ١٠/٦

مرغمة و يجزيك الله قال سلام بن مسكين: كان الحسن كثيراً ما يقول: يا معشر الشباب عليكم بالآخرة فاطلبوها، فكثيراً رأينا من طلبَ الآخرةَ فأدركها مع الدنيا، وما رأينا أحداً طلب الدنيا فأدرك الآخرة مع الدنيا[1] .

ومما يعين على الإخلاص العمل في السر فقد كان أبو وائل إذا خلا سبح ولو جعلت له الدنيا على أن يفعل ذلك وأحد يراه لم يفعل .وقال محمد بن واسع : إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة و امرأته لا تعلم. وكان رضى الله عنه يصوم الدهر ويخفي ذلك [2].

عن الأعمش، قال: كان عبدالرحمن بن أبي ليلى يصلي، فإذا دخل الداخل، نام على فراشه[3].

---

[1] **الزهد للبيهقى ص٦٥**

[2] صفة الصفوة :١٦/٢ ، ١٦٣/٢

[3] الحلية ٤ / ٣٥١ النبلاء ٢٦٤/٤

المعنى العام للآيات

افتتحت هذه السورة الكريمة بالإخبار بأن الله تعالى هو منزل ذلك الكتاب الذي بلغ الذروة العليا في الكمال فهو كتاب عزيز لا مثيل له لأن منزله هو العزيز كتاب حكيم أحكمت آياته لأن منزِّله هو الحكيم فحري بمن نزل عليهم هذا الكتاب أن يعلموا أنه ذِكرٌ لهم وأن فيه عِزهم فيعوا ما فيه ،ويأتمروا بأمره ويجتنبوا نهيه.ونزل القرآن الكريم على سيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لينير القلوب و يوقظ النفوس وتسعد به الأمة فإذا بالأمر الإلهي ينزل على رسول رب العالمين اعبد الله مخلصا له الدين فلا عبادة مع الشرك لأن الدين لا يقبل إلا إذا كان خالصا و إلا فإنه لا يعد دينا وما ضل الكافرون إلا بشركهم وإن زعموا أنهم عبدوا الله فإن عبادتهم لا تقبل لشركهم .إنهم ادعوا أنهم أشركوا بالله طلبا للقربى إليه فأمرهم إلى الله فهو الحكم الذي لا يهدي الكاذب الكافر ، ولماذا نسبوا له ولدا أرضي لهم هذا إن العزة الإلهية تأبى الشرك والإشراك ولو في صورة الولد سبحانه وتعالى هو الواحد الذي لا شريك له القهار الذي يقهر ولا يُقهرولا ندري لماذا كذبوا وانحرفوا عن الفطرة فقد خلق الله عباده على فطرة الإسلام والتوحيد لكنهم كذبوا.سبحانه أنى يتخذ ولدا و لم تكن له صاحبة وكيف تكون له صاحبة وقد أبدع هذا الخلق خلق السماوات التي لا تدرك حدودها الأبصار وخلق الأرض آية وعبرة لأولي الأبصار، وقلب الليل والنهار وسخر الشمس والقمر كل يسير بدقة وهو الذي أتقن كل شيء فكيف يليق بالبشر أن ينسبوا إليه هذا.سبحانه هو العزيز الغفار ولننظر في خلق البشر وخلق ما يحتاجه البشر ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد سبحانه هو الواحد

الذي لا مالك سواه ولا إله إلا الله وهذا الكون الذي أبُدع دليل على وحدانيته وذلك الكتاب الذي أنزله دل على وحدانيته فسبحانه الواحد الأحد.

بين المؤمن الشاكر والكافر الجاحد

المناسبة بين الآيات:-

لما كان الحديث في صدر السورة مجمله عن الوحدانية والإخلاص،وذكر الدلائل اليقينية على وحدانية الله تعالى أردف ذلك بالحديث عن موقف الناس تجاه هذه القضية العظيمة الواحدنية والإيمان بها، والإخلاص والتمسك به، وكيف تتضح هذه القضية في صور متعددة.

فقال سبحانه:

(إِن تَكْفُرُواْ فَإِنّ اللّهَ غَنِيّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَىَ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىَ ثُمّ إِلَىَ رَبّكُمْ مّرْجِعُكُمْ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصّدُورِ (٧)
وَإِذَا مَسّ الإِنسَانَ ضُرّ دَعَا رَبّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمّ إِذَا خَوّلَهُ نِعْمَةً مّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلّهِ أَندَاداً لّيُضِلّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنّكَ مِنْ أَصْحَابِ النّارِ(٨)
أَمّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ اللّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنّمَا يَتَذَكّرُ أُوْلُو الألْبَابِ (٩)

اللغة:-

يَرْضَه: أصله يَرْضَاه والضمير عائد إلى الشكر وحذف الألف علامة للجزم[1].

وَلاَ تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَىَ)الـوِزْرُ: الـحِمْل الثقـيل.و الـوِزْرُ: الـذَّنْبُ لِثِقَلِـه، وجمعهمـا أَوْزَارٌ.الـجوهري: الـوَزَرُ الإِثم والثِّقْـلُ . قـال ابـن الأَثـير: وأَكثـر مـا يطلق في الحديث على الذنب والإِثم. يقال:وَزَرَ يَزِرُ إِذا حمل ما يُثْقِلُ ظهرَه من الأَشياء المُثْقَلةِ ومن الذنوب. و وَوَزَر وِزْراً: حمله.ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَى ؛ أَي لا يؤخـذ أَحـد بـذنب غـيره ولا تـحملُ نفسٌ آثمةٌ وِزْرَ نَفْـسٍ أُخـرى، ولكـن كـلٌّ مَـجْزِيٌّ بعمله. والآثـام تسـمى أَوْزاراً لأَنها أَحمـال تُثْقِلُـه،و يلحـق صاحبها تعب كتعب حامل الثقل.

واحدها وِزْرٌ، وقال الأَخفش: لا تَأْثَمُ آثِمَةٌ بإِثم أُخرى...[2]

ذات: صاحبة ،مؤنث ذو صفة لمحذوف تقديره الأعمال .

دعـا:من الـدعوة وهـو يتعـدى بـإلى يقـال دعـا المؤذن النـاس إلى الصـلاة ودعـا فـلان النـاس إلى مأدبتـه والـدعوة مجـاز عـن الـدعاء..كقولـه تعـالى(وَإِذَا مَـسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (يونس:١٢)

خَوّلَـهُ أعطـاه،والخَـوَل: بفتحتـين وهـو تعهـد الشـيء أي الرجـوع إليـه مـرة بعـد أخرى و معنى خَوّلَـهُ في الأصل أعطاه خَوَلاً بفتحتين أي عبيدا وخدما أو أعطـاه مـا يحتـاج إلى تعهـده والقيـام عليـه ثم عُمـم لمطلـق العطـاء وأصـله مـن

[1] روح البيان: ٧٧/٨

[2] اللسان ٢٨٢/٥ ، ٢٨٣

الخال الذي هو العلامة وقد نقل فيه الواو والياء ثم قيل لسيما الجمال خال من ذلك وأخذ منه الخيال[1].

قَلِيلاً:أي تمتعا قَلِيلاً فهو صفة مصدر محذوف أو زمانا قَلِيلاً فهو صفة زمان محذوف[2].

أَمّنْ هُوَ قَانِتٌ):أم[3] متصلة بمحذوف تقديره:الكافر خير أم الذي هو قانت أو منقطعة والمعنى بل أمّن هو قانت كغيره أو الكافر الذي قيل له تمتع بكفرك قليلا.

(سَاجِداً وَقَآئِماً) نصبا على الحالية أي جامعا بين الوصفين المحمودين وصاحب الحال الضمير المستتر في قانت والواو للجمع بين الصفتين (يَحْذَرُ الآخرة)حال أخرى على التداخل أو الترادف أو استئناف وقع جوابا لسؤال مقدر،كأنه قيل:ما باله يفعل ذلك؟ فقيل يحذر الآخرة أي عذاب الآخرة.(وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبّهِ) حال أخرى؛فالحال الأول والثاني لوصف عمله الظاهر والحال الثالث والرابع –الجملتان –لوصف عمل قلبه[4].

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ)الفعل منزل منزلة اللازم ولم يقدر له مفعول لأن المقدر كالمذكور والمعني لا يَسْتَوِي من يوجد فيه حقيقة العلم ومن لا يوجد.

---

[1] اللسان :٢٢٥/١١ ، الألو سي ٢٤٤،٢٤٥/٢٣

[2] التحرير والتنوير ٣٤٤/٢٣،الألو سي ٢٤٥/٢٣

[3] أم على أربعة أوجه أهمها : ١-متصلة سميت بذلك لأن ما قبلها وما بعدها لا يستغنى بأحدهما عن الآخر وتسمى معادلة لمعادلتها للهمزة في إفادة التسوية أو الاستفهام .

٢-منقطعة سميت بذلك لانقطاع ما بعدها عما قبلها .فكل منها كلام مستقل لا ارتباط أحدهما بالآخر والإضراب لا يفارق أم المنقطعة وقد تكون أم للإضراب مجردا وقد تتضمن مع ذلك استفهاما إنكاريا أو طلبيا مغني اللبيب وعليه حاشية الدسوقي ٤٢/١ ، ٤٦/١)

[4] التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٣ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٤١٦/٩ لأحمد بن يوسف السمين الحلبي تحقيق د/أحمد محمد الخراط ط دار القلم دمشق الأولى ١٤١٤-١٩٩٣

(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ) الألْبَابِ جمع لب واللب: العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كاللباب واللب من الشيء، وقيل: هو ما زكى من العقل، فكل لب عقل وليس كل عقل لبا. ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولي الألباب[1] .

القراءات:–

قرأ الجمهور لِّيُضِلّ :أي لِّيُضِلّ الناس بعد أن أضل نفسه؛إذ لا يُضِلّ الناس إلا ضال،ولأنه ثبت أنه ضال بقوله(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً)فكان وصفه بإضلال الناس يزيد الكلام فائدة لم يكن وصف بها فكان ذلك أبلغ في ذمه مع ما تقدم من كفره.وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليَضل)بفتح الياء أي ليزداد ضلالا أو ليثبت عليه؛لأن أصل الضلال غير متأخر عن الجعل قال سبحانه(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ) (النحل:١٢٥)[2] .

واللام لام العاقبة أي لام التعليل المجازي، بيد أنه إلى الحقيقة أقرب لأن الجاعل هاهنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال وإن لم يعرف بجهله أنهما إضلال وضلال .

(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ) قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي أَمَّنْ بالتشديد. وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بالتخفيف فعلى القراءة الأولى أم داخلة على من الموصولة وأدغمت الميم في الميم. وأما على القراءة الثانية فقيل الهمزة للاستفهام دخلت على من والاستفهام للتقرير ومقابله محذوف أي أمن هو

---

[1] المفردات ك اللام مادة لب صـ٤٤٦

[2] حجة القراءات لابن زنجلة ٦١٩/١ تحقيق سعيد الأفغاني مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢-١٩٨٢

قانت كمن كفر. وقيل الهمزة في هذه القراءة للنداء ومن منادى وهى عبارة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ناداه الله سبحانه بالأوصاف العظيمة الأربعة ؛لأنها أوصاف له ونداء لمن هم من أصحاب هذه الأوصاف يعني المؤمنين أن يقولوا كيت وكيت وقيل التقدير يا مَن هو قانت إنك من أصحاب الجنة ،وناداه بنداء القريب تشريفا للمنادى وكأنه قد قرب إلى ربه وتلقاه ربه بكنفه وحفظه .ومِن القائلين بأن الهمزة للنداء الفراء حيث قال فسرها الذين قرؤوا بها فقالوا يا من هو قانت وهو وجه حسن والعرب تدعو بالألف كما تدعو بياء فيقولون يا زيد أقبل وأزيد أقبل فيكون المعنى أنه ذكر الناسي الكافر ثم قص قصة الصالح بالنداء كما تقول فلان لا يصوم ولا يصلي فيا من يصوم أبشر[1] وضعف ذلك أبو حيان وقال هو أجنبي عما قبله وعما بعده وقد سبقه إلى هذا التضعيف أبو على الفارسي والنحاس. وقال السمين مضعفا هذا القول : وفيه بعد ،ولم يقع في القرآن نداء بغير يا حتى يحمل هذا عليه،وأجاب عن ذلك بأن يجاب نقول ما المانع أن ينادى بغير يا وهو من كلام العرب ونداء للقريب وليكن هنا نداء بغير يا على هاتيك القراءة، واعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم والأخفش ولا وجه لذلك فإنه إذا ثبتت الرواية بطلت الدراية[2].وقد أحكمت الدراية هنا والحمد لله.

[1] زاد المسير ١٦٦/٧

[2] حجة القراءات: ٦٢٠/١ شرح طيبة النشر ١٩٦/٥ معاني القرآن للفراء ٤١٦/٢ طبعة عالم الكتب بيروت ١٩٨٠ الدر المصون ٤١٥/٩التحرير ٣٤٥/٢٣ الشوكاني ٤٥٣/٤ معاني القرآن للنحاس ١٥٧/٦

تأملات في الآيات البينات:-

(إِن تَكْفُرُواْ)بالله تعالى مع مشاهدة ما ذكر من موجبات الإيمان والشكر (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ)أي فأخبركم أنه عز وجل غني عن إيمانكم وشكركم غير محتاج إليكم ولا إلى إيمانكم ولا إلى عبادتكم،فإنه الغنى ومع كون كفر الكافر لا يضره ولا ينفعه إيمان المؤمن فهو (لاَ يَرْضَىَ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) ولا يحبه ولا يأمر به؛لما فيه من الضرر عليهم، وإنما قيل لعباده لا لكم لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عباده تعالى[1] . (وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ يَرْضَهُ) أي الشكر لكم لما فيه من نفعكم ومثل هذه قوله تعالى(إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (إبراهيم :٨) ومثلها الحديث القدسي(يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا)[2]،وهم عباده الذين قال عنهم (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)(الإسراء:٦٥) فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله وحببها إليهم والرضا إما بمعنى المحبة أو بمعنى الإرادة مع قيد ترك الاعتراض ويقابله السخط فعباده على ظاهره من العموم ومنهم من فسره بالإرادة من غير قيد ويقابله الكره وهؤلاء يقولون قد يرضى بالكفر أي يريده لبعض الناس كالكفرة كما روي عن ابن عباس[3]. و قال النووي: مذهب أهل الحق الإيمان بالقدر وإثباته وأن جميع الكائنات خيرها وشرها بقضاء الله تعالى وقدره وهو مريد لها كلها ويكره المعاصي مع أنه سبحانه

---

[1] أبو السعود ٢٤٤/٧

[2] مسلم: كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم ١٣٢/١٦

[3] ابن أبي حاتم : ٣٢٤٨/١٠

مريد لها لحكمة يعلمها جل وعلا .وقال بعض أصحابنا لا يطلق القول بأن الله تعالى يحب المعاصي ويرضاها لقوله تعالى(وَلاَ يَرْضَىَ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ).

والرضا قد يتعدى بعن و قد يتعدى بالباء و قد يتعدي بنفسه

١-تعديته بعن فإذا قلت: رضيت عن فلان فإنما يدخل على العين لا المعنى ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا وفي مقابله سخطت عليه. وبينهما فرق أنك إذا قلت: رضيت عن فلان بإحسانه لم يتعين الباء للسببية بل جاز أن تكون صلة مثله في رضيت بقضاء الله تعالى وإذا قلت: سخطت عليه بإساءته تعين السببية. ٢- تعديه بالباء فإذا قيل رضيت به فهذا يجب دخوله على المعنى إلا إذا دخل على الذات تمهيدا للمعنى ليكون أبلغ تقول: رضيت بقضاء الله تعالى ورضيت بالله عز وجل ربا وقاضيا .

٣-تعديته بنفسه وإذا عدي بنفسه -ولعله يراعى فيه التضمين أو الحذف والإيصال- جاز دخوله على الذات كقولك: رضيت زيدا وإن كان باعتبار المعنى تنبيها على كله مرضي بتلك الخصلة وفيه مبالغة وجاز دخوله على المعنى كقولك رضيت إمارة فلان.

وحقيقة الرضا في حقه تعالى مباينة لحقيقته فينا ...فالرضا-المتعارف عليه- في حق الله تعالى محال لأنه سبحانه لا يحدث له صفة عقيب أمر البتة فهو مجاز كما أن الغضب كذلك إما من أسماء الصفات إذا فسر بإرادة أن يثيبهم إثابة من رضي عمن تحت يده وإما من أسماء الأفعال إذا أراد الإستحماد وأن مثل قوله تعالى(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)(المجادلة:٢٢)إما من باب المشاكلة وإما من باب المجاز. فقوله تعالى(وَلاَ يَرْضَىَ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) دال على أنه جل شأنه لا يستحمد الكفر لعباده كما يستحمد الإسلام لهم

ويرتضيه،وفي قوله تعالى (إِن تَكْفُرُواْ إلى قوله سبحانه يَرْضَهُ لَكُمْ) تنبيه على الغنى الذاتي وأنه سبحانه تعالى لا يكون أمره بالخير لانتفاعه به ونهيه عن الشر لتضرره منه ثم في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى (وَلاَ يَرْضَىَ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) إشارة إلى أن عبوديتهم وربوبيته جل شأنه يقتضي أن لا يرضى لهم ذلك وفيه أنهم إذا اتصفوا بالكفر فكأنهم قد خرجوا عن رتبة عبوديته تعالى وبقوا في الذل الدائم ثم قال(يَرْضَهُ لَكُمْ) للتنبيه على مزيد الاختصاص .

لا تلازم بين الإرادة والرضا:-

قال ابن عطية: وتأمل الإرادة فإنهاحقيقة، إنما هي فيما لم يقع بعد، والرضا فإنما حقيقة فيما قد وقع،واعتبر هذا في آيات القرآن تجده،وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها على جهة التجوز هذا بدل هذا[1].وأما ابن المنير فإنه أوّل الرضا وقال:إنه لا يتأتى حمله في الآية على الإرادة ،وحمل الرضا على المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازي به المرضي عنه من الثواب والكرامة فيكون معنى الآية والله تعالى أعلم وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضي عنه،وقال في قوله تعالى(وَلاَ يَرْضَىَ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) أي لا يجازي الكافر مجازاة المرضي عنه بل مجازاة المغضوب عليه من النكال والعقوبة[2]، وقال الشيخ أبوالحسن الأشعري إن الإرادة غير الرضي،والرضي غير الإرادة والمشيئة،فالإرادة والمشيئة بمعنى واحد والرضي والمحبة والاختيار بمعنى واحد، وهذا حمل لهذه الألفاظ القرآنية على معان يمكن معها الجمع بين الآيات قال

[1] المحرر الوجيز:٥٢٠/٤ ، البحر ١٨٦/٩

[2] الانتصاف: ٣٨٩/٣ ، ونحوه بالرازي ٣٩١/١٣

التفتزاني: وهذا مذهب أهل التحقيق قال العلامة الطاهر بن عاشور وينبني عليه القول في تعلق الصفات الإلهية بأفعال العباد فيكون قوله تعالى (وَلاَ يَرْضَىَ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)راجعا إلى خطاب التكاليف الشرعية ،وقوله (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ) راجعا إلى تعلق الإرادة بالإيجاد والخلق.ويتركب من مجموعهما ومجموع نظائر كل منهما الاعتقاد بأن للعباد كسبا في أفعالهم الاختيارية وأن الله تتعلق إرادته بخلق تلك الأفعال الاختيارية عند توجه كسب العبد نحوها،فإن الكسب عند الأشعري هو الاستطاعة المفسرة عنده بسلامة أسباب الفعل وآلاته ،وهي واسطة بين القدرة والجبر أي هي دون تعلق القدرة وفوق تسخير الجبر جمعا بين الأدلة الدينية الناطقة بمعنى:أن الله على كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء،وبين دلالة الضرورة على الفرق بين حركة المرتعش وحركة الماشي،وجمعا بين أدلة عموم القدرة وبين توجيه الشريعة خطابها للعباد بالأمر بالإيمان والأعمال الصالحة،والنهي عن الكفر والسيئات وترتيب الثواب والعقاب[1]. ولسيدنا قتادة كلام نفيس جدا حيث فهم المراد من الآية فقد أخرج عبد بن حميد عنه قوله:والله ما رضي الله لعبد ضلالة ولا أمره بها ولا دعا إليها ولكن رضى لكم طاعته وأمركم بها ونهاكم عن معصيته[2].

(وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىَ) أي لا يحمل أحد ذنب أحد فلا يتعدى كفر الكافر إلى غيره و كذلك معصية العاصي كذلك فتبعته عليه هو لا غيره (ثُمّ إِلَىَ رَبّكُمْ مّرْجِعُكُمْ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصّدُورِ (٧))

[1] التحرير والتنوير ٣٣٩/٢٣ ، الشهاب ١٨٤/٨

[2] عزاه في الدر المنثور لعبد بن حميد الدر ٢١٣/٧

بما تضمره القلوب وتستره فكيف بما تظهره وتبديه وفي الآية دليل على إثبات البعث والقيامة وفيها تهديد للعاصي وبشارة للمطيع.

وإنما جاء في آية الأنعام "بما كنتم فيه تختلفون "لأنها وقعت إثر آيات كثيرة تضمنت الاختلاف بين أحوال المؤمنين وأحوال المشركين ولم يجيء مثل ذلك هنا ، فلذلك قيل هنا " بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " أي من كُفر من كفر وشُكر من شكر[1].

(وَإِذَا مَسّ الإِنسَانَ ضُرّ)من مرض وغيره من المكاره (دَعَا رَبّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ) تاركا من كان يدعوه في حالة الرخاء من دون الله عز وجل لعلمه بأنه من القدرة على كشف ضره.وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى إ(نَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) والظاهر أن المراد بالإنسان جنس الكافر لأن قوله (وَجَعَلَ لِلّهِ أَندَاداً) لا يتفق مع حال المؤمنين .قال ابن عاشور:والقول بأن المراد إنسان معين وأنه عتبة بن ربيعة أو أبو جهل خروج عن مهيع الكلام [2].

ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ) أعطاه نعمة عظيمة من جنابه أطلق على العطاء لما أن المعطي الكريم يتعهد من هو ربيب إحسانه بتكرير العطاء عليه مرة بعد أخرى.(نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ)نسي الضر الذي كان يدعو الله تعالى إلى إزالته وكشفه من قبل التخويل؛فما بمعنى الذي مُراداً بها الضر.

أو ما مصدرية أي نسي كونه يدعو.فذلك الجاهل في كلا الحالين لايكون صابراً في البلاء ولا شاكراً في النعماء[3].(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً)شركاء في العبادة

[1] التحرير والتنوير ٣٤١/٢٣

[2] التحرير والتنوير ٣٤٢/٢٣

[3] معاني القرآن للفراء: ٤١٦/٢ أبو السعود ٢٤٤/٧ الخطيب ٤٣٥/٣ البحر ١٨٨/٩،الدر المصون ٤١٣/٩،٤١٣

قيل أمثالا يضاد بعضها بعضا.قال قتادة والسدي:الرجال يطيعهم في المعصية قال النحاس:وقيل عبد الأوثان.وهذا أولى بالصواب-أي من قول قتادة والسدي – لأن ذلك في سياق عتاب الله عز وجل إياهم على عبادتها[1].

قال الشهيد سيد قطب:يجعل لله أندادا إما آلهة يعبدها كما كان في جاهليته الأولى؛وإما قيما وأشخاصا وأوضاعا يجعل لها في نفسه شركة مع الله ،كما يفعل في جاهلياته الكثيرة ! فإذا هو يعبد شهواته وميوله ومطامعه ومخاوفه وماله وأولاده وحكامه وكبراءه كما يعبد الله أو أخلص عبادة؛ويحبها كما يحب الله أو أشد حبا!والشرك ألوان فيها الخفي الذي لا يحسبه الناس شركا، لأنه لا يأخذ شكل الشرك المعروف،وإنما هو من الشرك في الصميم وبهذا يعلم وجاهة قول السدي وقتادة رحمهما الله تعالى ويشهد لهما قوله نعالى(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة: ٣١). وقوله عز وجل (أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ) (الأعراف: ٥٤) .

(لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ) فتكون العاقبة هي الضلال عن سبيل الله فسبيل الله واحدة لا تتعدد[2].(قُل تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً)تمتعا قليلا أو زمانا قليلا، قال الزجاج لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد والوعيد(إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) أي ملازميها والمعذبين فيها على الدوام وهو تعليل لقلة التمتع،وفيه اقناط من النجاة وذم الكفر كأنه قيل: إذ قد أبيت ما أمرت به من الإيمان والطاعة

[1] معاني القرآن للنحاس: ١٥٦/٦

[2] الظلال : ٣٠٤١/٥

فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته[1]. وهو تهديد شديد ووعيد أكيد،تهديداً لذلك الجاعل وبياناً لحاله ومآله،ومآل من جعل لله أنداداً كقوله تعالى: { قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } وقوله تعالى: { نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ }. وفي الوصف بالتمتع بالقليل لأن متاع الحياة الدنيا قليل بالنسبة للآخرة (فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (التوبة :٣٨).

(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ) من تمام الكلام المأمور به في (قل) و(أم) متصلة معادلة لهمزة الاستفهام حُذف معادلها، كأنه قيل له تأكيدا للتهديد وتهكما به: أأنت أحسن حالاً ومآلاً أم من هو قائم بالطاعات ودائم على وظائف العبادات في ساعات الليل التي فيها العبادة أقرب إلى القبول وأبعد عن الرياء حالتي السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط مثلك حال كونه ساجدا وقائما[2].

وقيل:أم منقطعة -المقدرة ببل والهمزة-وما فيها من الإضراب للانتقال من التهديد إلى التبكيت بتكليف الجواب الملجئ إلى الاعتراف بما بينهما من الفرق والتباين كأنه قيل بل أم من هو قانت أفضل أم من هو كافر مثلك[3].

قَانِتٌ قيل القانت: الداعي لربه وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: القانت المطيع لله عز وجل ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال الفراء: أصل القنوت الطاعة فكل ما قيل فيه فهو داخل في الطاعة[4]. قيل

[1] الكشاف ٣٩٠/٣ ، أبو السعود ٢٤٤/٧ ،الألوسي ٢٤٥/٢٣
[2] أبو السعود ٢٤٥/٧
[3] أبو السعود ٢٤٥/٧
[4] معاني القرآن للفراء: ٤١٦/٢

وفى الكلام حذف والتقدير كمن لا يفعل شيئا من ذلك كما يدل عليه السياق.

(آنَاءَ اللَّيْلِ)قال السدي : آناء الليل قال ساعات الليل. وقال الحسن وقتادة آناء الليل أوله وأوسطه وآخره[1].

قال الخطيب الشربيني: (آنَآءَ اللّيْلِ سَاجِداً أي وراكعا وَقَآئِماً) أي وقاعدا[2].

وقال ابن عاشور:وتخصيص الليل بالذكر دليل على أن هذا القانت لا يخلو من السجود والقيام آناء النهار بدلالة فحوى الخطاب [3].و لأن السجود والقيام وصفان متغايران لذا عطف أحدهما على الآخر وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة. وقيل إنه أفضل من القيام لحديث أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

(يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبّهِ) فينجو بذلك مما يحذره يفوز بما يرجوه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله(يَحْذَرُ الآخِرَةَ) قال: يحذر عقاب الآخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبّهِ) وَيَرْجُو أن يرحَمَه الله فيدخله الجنة[4]. وذكر الربوبية،وإضافة ضمير الراجي إلى رحمة ربه ليدل على أنه لا يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط.بل ويرجو رحمة ربه.

و(قُلْ) قل له أيضا بيانا للحق وتصريحاً به وتنبيهاً على شرف العلم والعمل (هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ) العلم النافع الموصل إلى معرفة الله والداعي إلى إتباع ما فيه رضاه،ويدخله جنته،والنجاة من غضبه وعقابه. فيعملون بمقتضى

[1] تفسير مجاهد:٥٥٦/٢ ، الطبري ١٢٩/٢٣

[2] السراج المنير ٤٣٥/٣

[3] التحرير والتنوير: ٣٤٦/٣٢

[4] الطبري:١٢٩/٢٣ ، ابن أبي حاتم ٣٢٤٩/١٠

علمهـم ويقنتـون الليـل سُـجداً ورُكعـاً يحـذرون الآخـرة ويرجـون رحمـة ربهـم (وَالّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم مثلك أيها الكافر الجاعل لله تعالى أندادا والاستفهام للتنبيه على أن كون الأولين في أعلى معارج الخير وكون الآخرين في أقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر .والذين يعلمون هم العاملون بعلمهم فإنهم المنتفعون به ؛لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم و الكلام تصريح بنفي المساواة بين القانت وغيره وذلك مقتضى العلم وأن الذي لا يترتب عليه العمل ليس بعلم عند الله تعالى ويجوز أن يكون الكلام واردا على سبيل التشبيه فيكون مقررا لنفي المساواة لا تصريحا بمقتضى الأول أي كما لا استواء بين العالم وغيره عندكم من غير ريبة فكذلك ينبغي أن لا يكون لكم ارتياب في نفي المساواة بين القانت المذكور وغيره وكونه للتصريح بنفي المساواة[1] .فأنت مقيم على الطاعة قائم بما يجب عليك من أمر الله[2].

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه تلا (أَمّنْ هُوَ قَانِتٌ) الآية فقال نزلت في عثمان بن عفان. قال ابن كثير :وإنما قال ابن عمر رضي الله عنهما ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالليل وقراءته حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه رضي الله تعالى عنه، وعن ابن عباس أنها نزلت في عمار بن ياسر. وعن عكرمة أنه عمار وعن مقاتل: عمار وصهيب وابن مسعود وأبو ذر،وفي رواية الضحاك عن ابن

[1] الكشاف: ٣٩٠/٣ ، أبو السعود: ٢٤٥/٧،الألوسي ٢٤٧/٢٣

[2] الوسيط : ٥٧٣/٣

عباس: أبو بكر وعمر[1]. قال أبو حيان :والظاهر أنه من اتصف بهذه الأوصاف من غير تعيين.وضعف الطاهر بن عاشور هذه الروايات وقال: ولا جرم أن هؤلاء المعدودين هم مِن أحق مَن تصدق عليه هذه الصلة فهي شاملة لهم ولكن محمل الموصول في الآية على تعميم كل مَن يصدق عليه معنى الصلة.وقال الألوسي:الظاهر أن المراد المتصف بذلك من غير تعيين ولا يمنع من ذلك نزولها فيهم رضي الله عنهم [2].

(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ) إنما يتعظ ويتدبر ويتفكر أصحاب العقول وهم المؤمنون لا الكفار فإنهم وإن زعموا أن لهم عقولا فهي كالعدم، فهذا التفاوت بين العلماء والجهّال لا يعرفه إلا أولوا الألباب.

وهذه الجملة كلام مستقل وارد من جهته تعالى بعد الأمر بما تضمن القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصي لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم وهو أيضا كالتوطئة لأفراد المؤمنين بعد بالخطاب والإعراض عن غيرهم أي إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وأما هؤلاء فبمعزل عن ذلك .

فقه الآيات:

دلت الآيات الكريمة على معان سامية ومواعظ هادية إلى ما يرضى ربنا البر الرحيم فمنها رد على من ذم العبادة خوفا من النار ورجاء الجنة. ولاشك أن العبادة لذلك ليس إلا؛ مذمومة بل قيل بكفر من قال:لو لا الجنة والنار ما عبدت الله تعالى على معنى نفي الاستحقاق الذاتي.

---

[1] ابن أبي حاتم:١٠ /٣٢٤٨ ،الدر المنثور: ٢١٣/٧، ابن كثير: ٤٧/٣

[2] البحر المحيط: ١٨٩/٩، التحرير: ٣٤٨/٢٣ الألوسي ٢٤٧/٢٣

وفي الآية **بيان فضل الشكر**

فقد حثنا الله جل جلاله عليه(وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ البقرة:١٥٢) وهو عنوان على كمال العبودية (وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ النحل:١١٤)والشكر سبب لزيادة النعم (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (إبراهيم :٧) قال سلام بن أبي مطيع متى شئت أن ترى من النعمة عليك أكثر منها عليه رأيته قال سلام إي والله إن أغلقت عليك بابك جاءك من يدق عليك بابك يسألك ليعرفك الله نعمته عليك[١]

والشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده : ثناء واعترفا وعلى قلبه : شهودا ومحبة . وعلى جوارحه : انقيادا وطاعة.والشكر مبني على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور.وحبه له.واعترافه بنعمته.فيما يكره.وثناؤه عليه بها.

وأن لا ستعملها فيما يكره.فهذه الخمس : هي أساس الشكر وبناؤه عليها.فمتى عُدم منها واحدة : اختل من قواعده الشكر قاعدة.

قال الجنيد : الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة. وشكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان .وشكر الخاصة : على التوحيد والإيمان وقوت القلوب. قال الجنيد: كان السري إذا أراد أن ينفعني يسألني

---

[١] حلية الأولياء ٦/١٨٧، ١٨٨

فقال لي يوما يا أبا القاسم : إيش الشكر ؟فقلت ألا يستعان بشيء من نعم الله تعالى على معاصيه .فقال من أين لك هذا ؟فقلت من مجالستك [1]

كما دلت الآيات على

فضل الخوف والرجاء.

فقد دلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء يرجو رحمة ربه،لا عمله و يحذر عقابه لتقصيره في عمله ثم الرجاء إذا جاوز حده يكون أمنا والخوف إذا جاوز حده يكون إياسا وقد قال الله تعالى (فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ) وقال (إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ)فيجب أن لا يجاوز أحدهما حده [2]. والفرق بين الرجاء والتمني أن التمني يورث صاحبه الكسل ، ولا يسلك طريق الجهد والجد ،بعكس صاحب الرجاء فالرجاء محمود والتمني معلول .

قال شاه الكرماني : علامة الرجاء حسن الطاعة وأجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل [3].

قال ابن حجر : من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه و من وقع منه طاعة يرجو قبولها وأما من انهمك على المعصية راجيا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور وما أحسن قول أبو عثمان الجيزي من علامة السعادة أن تطيع وتخاف ألا تقبل ومن علامة الشقاء أن

---

[1] الرسالة القشيرية في علم التصوف لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وعليها حواشي من شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري مطبعة صبيح صـ ١٣٩ ، مدارج السالكين من منازل إياك نعبد وإياك نستعين لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين بن القيم الجوزية تحقيق محمد حامد الفقي مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥-١٩٥٦ ٢٤٤/٢، ٢٤٥ .

[2] تفسير النسفي: ٥٢/٤

[3] الرسالة القشيرية :صـ ١٠٥ - ١١٠ ، مدارج السالكين :٣٥/٢

تعصي و ترجو أن تنجو .وكان عطاء السلمي: يمس جسده بالليل خوفا من ذنوبه مخافة أن يكون قد مُسخ.قال السري: إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرتين مخافة أن يكون قد اسود وجهي وكان يقول:من الناس ناس لو مات نصف أحدهم ما انزجر النصف الآخر ولا أحسبني إلا منهم .

وقال محمد بن واسع: لو كان يوجد للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنو مني من نتن ريحي[1] .وعن أنس قال:دخل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على رجل وهو في الموت فقال كيف تجدك قال:أرجو وأخاف فقال عليه الصلاة والسلام لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الذي يرجو وآمنه الذي يخاف[2] .

وفيها دلالة على فضل **صلاة الليل** وأنها أفضل من صلاة النهار.

إن قيام الليل عبادة تصل القلب بالله تعالى، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ[3]. إنها تصنع دعاة الجهاد والكفاح والصبر والثبات والصبر وهي وصية الشهداء لإخوانهم الأحياء كما علمنا من وصايا إخواننا المجاهدين في فلسطين فهم يريدون أن نكون من الذين

[1] الفتح: ٣٠٧/١١ ، صفة الصفوة: ٢٠٢/٢ ، ٥٥١،٥٥٢/١ ، ١٦٢/٢ بالترتيب

[2] المستدرك: ٨٠/٢ الترمذي كتاب الجنائز قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب وقد روى بعضهم هذا الحديث عن ثابت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مرسلا ٣١١/٣ ،ابن ماجه كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له ١٤٢٣/٢ .قال المنذري:إسناده حسن فإن جعفرا صدوق صالح احتج به مسلم ووثقه النسائي وتكلم فيه الدارقطني وغيره *الترغيب والترهيب: ١٤١/٤ المكتبة التوفيقية.

[3] البخاري :كتاب التهجد باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ٣٥/٣

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفا وطمعا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)وقيام الليل وسيلة لإعداد القادة والدعاة والمجاهدين كما أعد الله إمام المتقين قال سبحانه(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً (٧٩ :الإسراء) (يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤))

ونفذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الوصية فعن المغيرة رضي الله عنه قال:إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لَيَقُومُ- أو لِيُصَلِّيَ- حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ -أَوْ سَاقَاهُ -فَيُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟[1] .قال الأوزاعي: من أطال القيام في صلاة الليل هون الله عليه طول القيام يوم القيامة .

قال ثابت البناني:ما شيء لا أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل. وقال أيضا كابدت الصلاة عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة.

وقال أبو سليمان الداراني:لأهل الطاعة في ليلهم ألذ من أهل أهل اللهو بلهوهم و لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا[2].

ودل قوله تعالى (هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ) الخ على فضل العلم ورفعه قدره وكون الجهل بالعكس.قال سبحانه وتعالى(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ) المجادلة:١١)، وقال عز وجل (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ) (ألعنكبوت:٤٣).

[1] البخاري :كتاب التهجد باب قيام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من *الليل*٣/١٩، وكتاب التفسير سورة الفتح ٨/٤٤٨

[2] البداية والنهاية لابن كثير ٥/٦١٣ دار الغد العربي ، صفة الصفوة ٢/ ١٥٧ ،٢/٤١٠

المعنى العام للآيات

مما لا شك فيه أن تلك الدلائل التي عرفناها وتلك الدعوة الإلهية للحث على الإخلاص نعم تلك الدلائل من آثار رحمة الله تعالى الغني عن العالمين لا تضره المعاصي و لا تنفعه الطاعات وإنما رحمته سبقت غضبه فذلكم الله ربنا يعلمنا ويرشدنا ومن كفر فعليه كفره والله هو الغني ولا يرضى لعباده الكفر فهو يدعوهم لما يرضاه لهم وأما الشكر فهو خير والله يرضاه لنا وليعلم الكل أن كل إنسان بما كسب لا يحمل إنسان ذنبا لم يعمله أو يكون سببا فيه ومرجع الجميع إلى رب الجميع فيخبرهم بما كانوا يعملون لأنه العليم الحكيم الذي لا تخفى عليه خافية بل يعلم خفايا الصدور. أما ذلك الإنسان الحقير المهين الذي كفر بالغني الحميد إذا أصاب ذلك الإنسان ضر لجأ إليه وجأر بالشكوى وتذلل وتضرع فإذا عمّه الله برحمته و أقال عثرته وأجاب دعوته كفر بنعمة ربه ونسي ما كان يدعو إليه ثم زاد في غيه وضلاله فجعل لله شركاء ليضل عن سبيل الله فكيف سبيله وأين مصيره سوف يتمتع ويزول التمتع ويفرح وينتهي الفرح ويكون مصيره إلى النار والعياذ بالله هذا حال الجاحد ولكن هناك صنف آخر مطيع لله متصل بأسباب رضا مولاه فهو دائم الطاعة ساعات الليل وأطراف النهار قلبه خاشع وبدنه خاضع يخاف عذاب الآخرة ويرجو نعيمها الدائم في الجنة الخلد فبعد ذلك هل يقول قائل إنها سواء لا إنه لا يستوي العلماء العاملون و لا الجهلاء الضائعون.

وصايا تربوية

(قُلْ يَعِبَادِ الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ رَبّكُمْ لِلّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـَذِهِ الدّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةٌ إِنّمَا يُوَفّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المُسْلِمِينَ (١٢)قُلْ إِنّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣)قُلِ اللّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُمْ مّن دُونِهِ قُلْ إِنّ الْخَاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوَاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(١٥) لَهُمْ مّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مّنَ النّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوّفُ اللّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعِبَادِ فَاتّقُونِ (١٦) وَالّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوَاْ إِلَى اللّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىَ فَبَشّرْ عِبَادِ (١٧) الّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَـَئِكَ الّذِينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُو الألْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النّارِ(١٩) لَكِنِ الّذِينَ اتّقَوْاْ رَبّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مّبْنِيّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ وَعْدَ اللّهِ لاَ يُخْلِفُ اللّهُ الْمِيعَادَ (٢٠).

اللغة:-

قُلْ ياَ عِبَادِ: ذكر أئمة اللغة في حكم المنادى المضاف إلي ياء المتكلم عدة أوجه وقد حذفت الياء-هنا- على أحد هذه الأوجه[1].

وفيه إشارة لطيفة: قُلْ ياَ عِبَادِ فإنه خطاب لرسوله عليه السلام على الخصوص فقد توجه الخطاب إليه في فهمنا،وغاب العباد كلهم عن علم ذلك فهم غائبون عن شهود هذا الخطاب لا يعلمونه إلا بوساطة الرسول.وحذفت الياء لأن المخاطبين في هذه الآية هم عباد الله المتقون، فانتسابهم إلى الله مُقَرر فاستغني عن إظهار ضمير الجلالة في إضافتهم إليه.وأما(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا) على ثبوت الياء وحرف النداء في الخط فإنه دعاهم من مقام إسلامهم وحضرة امتثالهم إلى مقام إحسانهم و لأن الخطاب هنا للذين أسرفوا وهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم فكان إثبات ياء المتكلم في خطابهم زيادة تصريح بعلامة التكلُم تقوية لنسبة عبوديتهم إلى الله تعالى إشارة إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده[2].

---

[1] قال ابن هشام إذا كان المنادى مضافا إلي ياء المتكلم كغلامي جاز فيه ست لغات

١-إثبات الياء الساكنة يا غلامي

٢- بحذف الياء الساكنة وإبقاء الكسرة دليلا عليها ياغلامِ قال تعالى (يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)و (يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ).

٣- ضم الحرف الذي كان مكسورا لأجل الياء وهي لغة ضعيفة وقرئ (قَالَ رَبُ احْكُم بِالْحَقِّ) بالضم)

٤-يا غلامي ، بفتح الياء قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ)

٥- يا غلاما بقلب الكسرة التي قبل الياء المفتوحة فتحة فتنقلب الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها قال تعالى(يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ) (وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ)

٦-يا غلام وإبقاء الفتحة دليلا عليها. (الأشموني و عليه حاشية الصبان ١٤٦/٣ ، قطر الندى ٢٢٣،٢٢٤)

[2] البرهان في علوم القرآن : ٤٠٤/١ ، ٤٠٥ التحرير والتنوير:٣٥٢/٢٣، ٤١/٢٤

لِلّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـَذِهِ الدّنْيَا حَسَنَةٌ:(لِلّذِينَ أَحْسَنُواْ):جار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم،حَسَنَةٌ: مبتدأ وتنوينه للتفخيم أي للمحسنين في الدنيا لهم حَسَنَةٌ في الآخرة أي حَسَنَةٌ عظيمة.وتوسيط قوله في (فِي هَـَذِهِ الدّنْيَا)بين (لِلّذِينَ أَحْسَنُواْ) وبين (حَسَنَةٌ) نظم اختص به القرآن؛ لإكثار المعاني التي يسمح بها النظم،وهذا من طرق إعجاز القرآن.

فيجوز أن يكون قوله(فِي هَـَذِهِ الدّنْيَا).

١-متعلقا بأحسنوا أي فعلوا الحسنات في الدنيا على أن حسنة هي الجنة ويكون الجزاء في الآخرة،وحُ ذفت صفة حسنة؛إذ المعنى حسنة عظيمة.

٢- أو متعلقا بحسنة على أن الحسنة ما يُعطى العبد في الدنيا مما يستحب فيها وما يعطى من موالاة الله إياه ومحبته له والجزاء في الدنيا ٣-أو حالا من حسنة- فالمراد بها حينئذ الصحة والعافية والنصر وولاية الله تعالى.

(وَأَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةٌ) جملة معترضة والواو اعتراضية [١].

وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوّلَ المسْلِمِينَ :اللام تعليلية أي أمرت بذلك لأَنْ أَكُونَ أَوّلَ المسْلِمِينَ فمتعلق أُمِرْتُ محذوف لدلالة قوله (أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ) عليه. (مُخْلِصاً لّهُ دِينِي) : حال من فاعل أعبد.

لَهُمْ: خبر مقدم و(ظُلَلٌ: مبتدأ.و(مّن فَوْقِهِمْ) متعلق بمحذوف حال من ظلل والتقدير ظلل كائنة من فوقهم.و(مّنَ النّارِ) صفة لظلل [٢].

ذَلِكَ: مبتدأ ويُخَوّفُ اللّهُ بِهِ عِبَادَهُ: خبر.

---

[١] التحرير والتنوير: ٣٥٣/٢٣، ٣٥٤ مشكل إعراب القرآن: ٦٣١/٢

[٢] العكبري :٢٦٣/٤

ظُلَلٌ:الظلل جمع ظُلَة وفي المفردات: الظل ضد الضح، وهو أعم من الفيء، يقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس: ظل، ولا يقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس، و الظُلَلٌ ما يستظل به الجالس وإطلاق الظلل عليها تهكم لأنها عبارة عن أطباق النار[1]. (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا) الذين اسم موصول مبتدأ وخبره : لَهُمُ الْبُشْرَىَ.

أَن يَعْبُدُوهَا) في محل نصب بدلا من الطّاغُوتَ؛بدل اشتمال،تقديره:وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ عبادة الطّاغُوتَ.

والطّاغُوتَ: عبارة عن كل معتد، وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع. وسُمي الساحر، والكاهن، والمارد من الجن، والصارف عن طريق الخير طاغوتاً، والطّاغُوتَ بناء مبالغة في المصدر كالرحموت والعظموت و ووزنه: فعلوت من الطغيان وأصله طغيوت أو طغووت من الياء أو الواو[2]،والطغيان والطغوان بمعنى، وجمعه على الطواغيت يدل على أن الجمع بني على الواو، وقد يكون مصدرا نقل إلى البالغ الغاية في الطغيان وتجاوز الحد واستعماله في فرد من هذا المفهوم العام شيطاناً كان أو غيره يكون حقيقة ويكون مجازاً[3]. وشيوعه في الشيطان لكونه رأس الطاغين وفسره هنا بالشيطان مجاهد[4].

(أَفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ) الهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر، أأنت مالك أمرهمَ فَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ.و مَنْ ١-يحتمل أن تكون

---

[1] المفردات :صـ٣١٤

[2] قال الشهاب :ومادة طيغ أو طوغ مهملة -يعني في الإستعمال- *العناية ١٩٠/٨

[3] المفردات :مادة صـ٣٠٤

[4] تفسير مجاهد: ٥٥٦/٢

موصولة فى محل رفع مبتدأ،وخبرها محذوف أى كمن يخاف أو فأنت تخلصه أو تتأسف عليه.

٢-ويحتمل أن تكون شرطية وجوابها (أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ) فالفاء فاء الجواب دخلت على جملة الجزاء،وأعيدت الهمزة لتأكيد معنى الإنكار أو لطول الكلام،وعبارة القرطبي : تأكيداً لطول الكلام،وقال الفراء المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب.الكلام على التقدبر الأول-كونها موصولة- جملة. وعلى التقدير الثاني-كونها شرطية- جملتان[1].

وَعْدَ اللَّهِ) مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة قبله لأن قوله لَهُمْ غُرَفٌ في معنى وعدهم الله بذلك وجملة لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ مقررة للوعد أي لا يخلف الله ما وعد به الفريقين من الخير والشر [2].

تأملات في الآيات البينات:-

(قُلْ يَعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ) أمرالله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أن يذكر المؤمنين ويحثهم على التقوى والطاعة أي قل لهم ربكم يقول يا عبادي الذين صدقوا بتوحيد الله اتقوا ربكم بطاعته واجتناب معاصيه وإخلاص الإيمان له ونفى الشركاء عنه، وفيه إيذان بأنهم هم ألوا الألباب الذين ذكروا قبل ، قل لهم قولي هذا بعينه وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فإن نقل عين أمر الله تعالى أقوى في إيجاب الامتثال به[3]. (لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ) تعليل للأمر أو

[1] معاني القرآن للنحاس: ١٦٣/٦ الكشاف :٣٩٣/٣ البيضاوي: ٦١/٥ القرطبي :٢٤٤/١٥

[2] البيضاوي: ٦٣/٥ ، فتح القدير: ٤٥٧/٤

[3] أبو السعود:٢٤٦/٧

لوجوب الامتثال به. (بَحَسَنَةٌ) المراد بها الجنة وقوله (وَأَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةٌ) جملة معترضة جرت مجرى المثل منعا للاحتجاج بعدم التمكن في الوطن من رعاية الأوامر والنواهي والتمسك بدين الله. قال مجاهد: فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان[1]،(وَأَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةٌ)قال عطاء:إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ثم قرأ { أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} (النساء: ٩٧) (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) اتقوا ربكم فإن للمحسنين فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الجنة في الأخرى ولا عذر للمفرطين في الإحسان والطاعة ولو اعتذروا بعدم التمكن من الطاعة في أوطانهم وبلادهم،فحثهم على الطاعةولو بالهجرة فإن أرض الله تعالى واسعة وبلاده كثيرة فليهاجروا إلى ربهم لنيل الرضوان.وقال القرطبي: فتكون الآية دليلا على الانتقال من الأرض الغالية، إلى الأرض الراخية، كما قال سفيان الثوري: كن في موضع تملأ فيه جرابك خبزا بدرهم[2] فكل ذلك مُعين على العبادة ميسر للطاعة.

وكأنه وقع في خلَدهم هل نكون نحن ومن يتمكن من الإحسان في بلدته فارغ البال رافع الحال سواءا بسواء؟ فأجيبوا(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ) الذين صبروا على الهجرة ومفارقة الأحباب واقتدوا بالأنبياء والصالحين يوفون أجرهم بغير حساب. وأصله إنما توفون أجوركم بغير حساب على الخطاب وعدل عنه تنبيها على أن سبب ذلك صبرهم فيفيد أنكم توفون أجوركم بصبركم كما وُفى أجر من قبلكم بصبرهم وهذا عام شامل للصبر على كل بلاء غير مخصوص بالصبر على المهاجرة لكنه جيء به في الآية لذلك وليشمل

[1] تفسير مجاهد٢/٥٥٦

[2] الجامع لأحكام القرآن :١٥/٢٤١ المكتبة العربية للتراث

الصابرين على ألم المهاجرة شمولا أولياً. والجار والمجرور في موضع الحال إمّا من الأجر أي إنما يُوفون أجرهم كائنا بغير حساب. وذلك بأن يغرف لهم غرفاً ويُصب عليهم صباً قال الأوزاعي: ليس يُوزن لهم ولا يُكال لهم إنما يغرف لهم غرفاً. وإمّا أن يكون حالاً من الصابرين أي إنما يوفون ذلك كائنين بغير حساب عليه والمراد على الوجهين المبالغة في الكثرة وهو المراد بقول ابن عباس لا يهتدي إليه حساب الحُسّاب ولا يُعرف. ومعنى القصر ما يوفى الصابرون أجرهم إلا بغير حساب وفيه اهتمام بأمر الأجر.

وقال الزمخشري: (فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا) متعلق بأحسنوا لا بحسنة معناه: للذين أحسنوا في هَذِهِ الدُّنْيَا فلهم حَسَنَةٌ في الآخرة وهي دخول الجنة أي حسنة غير مكتنهة بالوصف،والسدي فسر الحسنة بالصحة والعافية، أي جعل فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا متعلق بحسنة . أي للمحسنين صحة وعافية في الدنيا[1]. و قوله تعالى (وَأَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةٌ) على هذا أن يكون اعتراضا رفعا لما قد تظن بعض النفوس من خلاف ذلك الجزاء بواسطة اختلاف الهواء والتربة وغير ذلك مما يؤدي إلى آفات في البدن فقيل(وَأَرْضُ اللّـهِ وَاسِعَةٌ) فلا يخلو أحد محلا يناسب حاله.فإن لم يلائمه مكان فسيجد غيره،و فيه تنبيه على أن من جعل الأرض ذات الطول والعرض قطعا متجاورات تكميلا لتنعمهم وسعادتهم. يجب أن تقابل نعمه بالشكر ليكونوا من المحسنين ثم قيل (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ) أي توفية الأجر لهؤلاء المحسنين إنما يكون في الآخرة والذي نالوه في الدنيا عاجل حظهم وأما الأجر الموفى بغير حساب فذلك للصابرين

[1] الكشاف ٣/٣٩٠، ٣٩١، الرازي ١٣/٣٩٩ ،٤٠٠ الألوسي ٢٣/١٤٨

ومن سلبناه تلك العاجلة تمحيصا له وتقريبا وفي ذلك تسلية لأهل البلاء وتنشيطاً للعباد على مكابدة العبادات وتحريضاً على ملازمة الطاعات.

و الإحسان تفسيره كما في الحديث الشريف أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك [1]. أي إتقان العمل .

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ) أمر عليه الصلاة والسلام ببيان ما أمر به نفسه من الإخلاص في عبادة الله عز وجل الذي هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة في حثهم تنفيذ ما كلفوا به،وتمهيدا لما يعقبه مما خوطب به المشركون (أُمِرْتُ) لم يصرح بالآمر لوضوح أنه هو الله عز وجل،وقيل للإشارة إلى أن هذا الأمر مما ينبغي امتثاله سواء صدر منه تعالى أم صدر من غيره سبحانه.(وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسْلِمِينَ) وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدم المسلمين في الدنيا والآخرة لأن إحراز قَصَب السبق في الدين بالإخلاص فيه وإخلاصه عليه الصلاة والسلام أتم من إخلاص كل مخلص فالمراد بالأولية الأولية في الشرف والرتبة أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من قريش ومن دان بدينهم وعبارة الخطيب: لأجل أن أو بأن أكون أول المسلمين أي من هذه الأمة وبهذا زال التكرار [2].وقال الرازي : ذكر لفظ أمرت أولا في عمل القلب وثانيا في عمل الجوارح والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقييده بالعلة ولبيان أن العبادة المذكورة كما تقتضي الأمر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق في الدين [3]. وإلى حذف الأمر وكون اللام تعليلية ذهب

---

[1] البخاري كتاب الإيمان باب سؤال جبريل... ١٤٠/١

[2] السراج المنير :٤٣٧/٣، الرازي ٤٠٣/١٣

[3] الكشاف ٣٩٢/٣ البيضاوي ٦١/٥

البصريون في هذه الآية ونحوها وذهب غيرهم إلى أنها زائدة[1]. واللام للتعليل أي وأمرت بما أمرت به لأجل أن أكون أول المسلمين.وقيل إنها مزيدة للتأكيد والأول أولى.

وفي المعنى أوجه:-

١-أن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدي بي في قولي وفعلي جميعا ٢-أن أفعل ما أستحق به الأولية والشرف من أعمال السابقين دلالة على السبب وهيالأعمال التي يستحق بها الشرف بالمسبب وهو الأولية والشرف المذكور في الآية. ٤- أن أكون أول من أسلم في زماني ومن قومي أي إسلام على وَفْق الأمر.و رُجح هذا المعنى لأنه هو المكرر الشائع في القرآن الكريم وفيه سائر المعاني الأخر من موافقة القول الفعل ولزوم أولية الشرف من أولية التأسيس مع أنه ليس فيه أنه أمر بأن يكون أشرف وأسبق[2].(قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي) أي أخاف إن عصيته بشيء من المعاصي مثل ترك إخلاص العبادة له وتوحيده والدعاء إلى ترك الشرك وذم أهله أو إجابة المشركين إلى ما دعوني إليه من عبادة غير الله.(عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)وهو يوم القيامة ووصفه بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال والمقصود من قول ذلك لهم، تهديدهم والتعريض لهم بأنه عليه الصلاة والسلام مع عظمته لو عصى الله تعالى ما أمن من العذاب فكيف بهم؟ فمعناه التعريض بغيره بطريق الأولى ودلت الآية على أن المترتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب فيجوز العفو عن

---

[1] الكشاف ٣/٣٩٢، الدر المصون ٩/٤١٨ أبو السعود ٧/٢٤٧،الألوسي ٢٣/٢٥٠

[2] الكشاف ٣/٣٩٢، فتح القدير ٤/٤٥٥ الألوسي ٢٣/٢٥٠

الصغائر والكبائر [1].(قُلِ اللّهَ أَعْبُدُ) أي لا أعبد غيره سبحانه لا استقلالا ولا على جهة الشركة (مُخْلِصاً لّهُ دِينِي) خالص لله غير مشوب بشرك ولا رياء (مُخْلِصاً لّهُ دِينِي) وذلك يدل على إخلاصه عن الشرك الظاهر والخفي. والفرق بين هذا و بين قوله سبحانه (قُلْ إِنِّ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ)أن (قُلْ إِنِّ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ):إخبار بأنه عليه الصلاة والسلام مأمور من جهة الله بعبادته تعالى مخلصا له الدين.و أمّا(قُلِ اللّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لّهُ دِينِي) فهو إخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحدا غير الله وإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجه وآكده إظهارا لتمسكه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في الدين وحسما لأطماعهم الفارغة حيث أن كفار قريش دعوه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلى دينهم فنزلت لذلك وتمهيدا لتهديدهم بقوله عز وجل[2].(فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُمْ مّن دُونِهِ) اعبدوا أي شيء أردتم أن تعبدوه من دُونِهِ عز وجل وفيه دلالة على شدة الغضب عليهم، كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كي يحل بهم العقاب فهذا الأمر للتهديد (قُلْ إِنّ الْخَاسِرِينَ)أي الكاملين في الخسران وهو إضاعة ما لهم لجمعهم أعظم أنواع الخسران (قُلْ إِنّ الْخَاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوَاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم باختيارهم الكفر لهما. والمراد بالأهل أتباعهم الذين أضلوهم أي أضاعوا أنفسهم وأهليهم وأتلفوهما يوم القيامة حين

[1] مفاتيح الغيب :٤٠٣/١٣ روح البيان للبروسوي : ٨٧/٨

[2] الكشاف: ٣٩٢/٣ ، الرازي ٤٠٤/١٣، الألوسي ٢٥٠/٢٣

يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب الدائم وأوقعوهما في هلكة ما وراءها هلكة.عن ابن عباس في قوله (قُلْ إِنّ الْخَاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوَاْ أَنفُسَهُمْ) الآية قال: هم الكفار الذين خلقهم الله للنار وخلق النار لهم فزالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنة قال الله (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ)[1]. عنه أيضا في قوله (قُلْ إِنّ الْخَاسِرِينَ الّذِينَ خَسِرُوَاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) قال أهليهم من أهل الجنة كانوا أعدوا لهم لو عملوا بطاعة الله فغبنوهم[2].(أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) في الأسلوب الحكيم من١- استئناف الجملة لتأكيد ما قبلها ٢- وتصديرها بحرف التنبيه (ألا).٣- والإشارة بذلك إشارة إلى بُعد منزلة المشار إليه في الشر وأنه لعظمه بمنزلة المحسوس ٤-وتوسيط ضمير الفصل-هو- المفيد للقصر ٥-وتعريف الخسران يدل على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران وأن لا خسران يساويه ولا عقوبة تدانيه،وأنه انحصر فيهم جنس الخاسرين ٦ -والإتيان به على فعلان الأبلغ من فعل لأنه اسم مصدر الخسارة دال على قوة المصدر و المبالغة فيه وذلك للإشعار بأن هذا الخسران الذي حل بهم قد بلغ من العظم إلى غاية ليس فوقها غاية ٧-ووصفه بالمبين.كل ذلك للدلالة على كمال هوله وفظاعته وأنه لا نوع من الخسران وراءه [3].

(لَهُمْ مّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مّنَ النّارِ) لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم (وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ) مهاد كثيرة من النار وتسميتها ظللا من باب المشاكلة أو لأنها تظل من تحتها من أهل النار لأن طبقات النار صارت في كل طبقة

---

[1] جامع البيان: ١٣١/٢٣

[2] الدر المنثور: ٢١٦/٧ و عزاه لابن المنذر

[3] الكشاف ٣٩٠/٣ ،الرازي ٤٠٥/١٣ ، الألوسي ٢٥١/٢٣ السراج المنير ٤٣٨/٣ .

منها طائفة من طوائف الكفار وهذا نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام،وقيل لهم وعبر عما علاهم من النار بالظلل؛لأن الكلام جار مجرى التهكم بهم أي لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكمة بعضها فوق بعض من النار(وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ)كائنة من النار–أيضا–والمراد أن النار محيطة بهم كما قال عز وجل(لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (الأعراف:٤١). وقال تعالى: (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (العنكبوت:٥٥) (ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ) ذلك العذاب الفظيع يذكره سبحانه لهم بآيات الوعيد ليخافوا فيجتنبوا ما يوقعهم فيه والعباد أي المؤمنين لأنهم المنتفعون بالتخويف ولأن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم، وقيل هو للكفار وأهل المعاصي وقيل هو عام للمسلمين والكفار (يَعِبَادِ فَاتَّقُونِ) اتقوا هذه المعاصي الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي،وهذه رحمة من الله جل جلاله.(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ) قال ابن زيد:نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلا الله زيد ابن عمرو بن نفيل وسلمان وأبي ذر[1].قال ابن عطية وهي على كل حال عامة في الناس إلى يوم القيامة يتناولهم حكمها،وقال ابن كثير: والصحيح أنها شاملة

[1] إسناده ضعيف جدا لضعف ابن زيد وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني العدوي . ضعفه أحمد والنسائي وأبو زرعة قال أبو حاتم: ليس بقوي في الحديث كان في نفسه صالحا و في الحديث واهيا. قال ابن سعد: كان كثير الحديث ضعيفا جدا. قال البخاري: ضعفه على جدا.قال الشافعي ذكر رجل لمالك حديثا منقطعا فقال اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح قال ابن عدي: له أحاديث حسان وهو ممن احتمله الناس وصدقه بعضهم وهو ممن يكتب حديثه قال ابن حجر: ضعيف من الثامنة:ت ١٨٢ (التهذيب٦/١٧٧ التقريب ١/٤٨٠ المجروحين ٢/٥٧)

لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة[1].

(أَن يَعْبُدُوهَا)أعرضوا عن عبادتها وخصوا عبادتهم بالله عز وجل،وعبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان إذ هو الآمر بها والمزين لها وإذا فسر الطّاغُوت بالأصنام فالأمر ظاهر،وفي هذا اللفظ مبالغات وهى التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وأن البناء بناء مبالغة فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط والقلب –أي في تصريف الكلمة– وهو للاختصاص إذ لا تطلق على غير الشيطان والمراد بها ههنا الجمع[2].وقدم اجتناب الطّاغُوتَ على الإنابة إلى الله كما قدم الكفر بالطّاغُوتَ على الإيمان بالله(فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)على وَفق كلمة التوحيد لا إله إلا الله ،قدم نفي وجود الآلهة على إثبات الألوهية لله تعالى[3]،قدم أيضا ومن باب التخلية قبل التحلية. (وَأَنَابُوَاْ إِلَى اللّهِ) وأقبلوا إليه سبحانه معرضين عما سواه إقبالا كليا (لَهُمُ الْبُشْرَىَ) بالثواب الجزيل وهو الجنة وهذه البشرى إما على ألسنة الرسل عليهم السلام أو الملائكة عند حضور الموت.وقال الخطيب:لَهُمُ الْبُشْرَىَ في الدنيا والآخرة؛أمّا في الدنيا فالثناء عليهم بصالح أعمالهم وعند نزول الموت وعند الوضع في القبر ،وأمّا في الآخرة فحين يحشرون و عند الوقوف للحساب،وعند جواز الصراط،وعند دخول الجنة فعند كل موقف

---

[1] المحرر الوجيز :٤/٥٢٥ ، ابن كثير ٤/٤٨

[2] الكشاف: ٣/٣٩٣ النسفي ٤/٥٣ الألوسي ٢٣/٢٥٢

[3] روح البيان: ٨/٨٩

من هذه المواقف تحصل لهم البشارة بنوع من الخير والراحة والروح والريحان[1].
(فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)للذين اجتنبوا وأنابوا فهذا مدح لهم بأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح والندب.وقيل يستمعون أمر الله تعالى فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو والانتصار والإغضاء والإبداء والإخفاء لقوله تعالى (وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى البقرة :٢٣٧) (وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) (البقرة :٢٧١)والفرق بين الوجهين أن هذا أخص لأنه مخصوص بأوامر فيها تخيير بين راجح كالعفو والقصاص مثلا كأنه قيل يتبعون أحسن القولين الواردين في معين وفي الأول يتبعون الأحسن من القولين مطلقا كالإيجاب بالنسبة إلى الندب مثلا الأحسن بالنسبة إلى الآخذ والعامل.وعن الزجاج يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن.أو يستمعون الحديث مع القوم فيه محاسن ومساو فيحدث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه،وقيل يستمعون القول ممن كان فيتبعون أولاه بالقبول وأرشده إلى الحق ويلزم من وصفهم بذلك أنهم يميزون القبيح من الحسن ويجتنبون القبيح.ويجمع هذه الأقوال كلام ابن عطية حيث قال : (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)كلام عام في جميع الأقوال ،وإنما القصد الثناء على هؤلاء ببصائر هي لهم وقوام في نظرهم حتى أنهم إذا سمعوا قولا ميزوه واتبعوا أحسنه وأريد بهؤلاء العباد الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم لئلا ينفك النظم فإن قوله تعالى فبشر مرتب على قوله سبحانه (لَهُمُ الْبُشْرَىَ)ووضع الظاهر موضع الضمير ليشرفهم تعالى بالإضافة

[1] السراج المنير: ٤٣٩/٣ أصله بالرازي ٤١٠/١٣

إليه ولتكرير بيان الاستحقاق وليدل على أنه أراد أن يكونوا نقادا فى الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل حرصا على إيثار الطاعة ومزيد القرب عند الله تعالى وفيه تحقيق للإنابة وتتميم حسن[1]. (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) وفقهم لمحاسن الأمور أو أكرمهم تعالى بدين التوحيد[2] ،وأرشدهم لكل خير. (وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُو الأَلْبَابِ) أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية لا غيرهم وفي الآية دلالة على ذم التقليد المحض ولذا قيل:

شمر وكن في أمور الدين مجتهدا * ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

واستدل بها على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها[3].

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) مثل من عبد الطَّاغُوتَ واتبع خطواتها، واتخذ إلهه هواه. والمراد بتلك الكلمة وعيد الله وهو كلام الله المقتضي أن الكافر سيحل به العذاب وسيدخل جهنم لذا عبر بأنه كلمة العذاب ويفسرها قوله تعالى (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)(ص:٨٥) والتقدير أأنت مالك أمر الناس قادر على التصرف فيه فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه على معنى لا تقدر على الإنقاذ بل المالك والقادر على الإنقاذ هو الله عز وجل.وعدل عن فأنت تنقذه إلى (أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ) لما فيه من تشديد الإنكار والاستبعاد،وفيه إشارة إلى أنه نزل استحقاقهم للعذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار وأنه مثل

[1] الكشاف: ٣٩٣/٣ ، الألوسي ٢٣

[2] بحر العلوم: ١٤٧/٣

[3] البيضاوي :٦٢/٥

حالـه عليـه الصـلاة والسـلام في المبالغـة في تحصـيل هـدايتهم والاجتهـاد في دعـائهم إلى الإيمـان بحـال مـن يريـد أن ينقـذ مـن في النـار منهـا[1]. وفي ذلـك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه كان حريصا على إيمان قومه فأعلمه الله أن من سبق عليه القضاء وحقت عليه كلمة الله لا يقدر رسول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم أن ينقـذه مـن النـار بـأن يجعلـه مؤمنـا قـال الشوكاني: وفى الآية تنزيل لمن يستحق العذاب بمن قد صار فيه وتنزيل دعائه إلى الإيمان منزلة الإخراج له من عذاب النار[2]. ولعل تلك الآية المباركة تذكرنا بالحديث الشريف؛ فعن أَبَي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَـارًا فَلَمَّـا أَضَـاءَتْ مَـا حَوْلَـهُ جَعَلَ الْفَـرَاشُ وَهَـذِهِ الـدَّوَابُّ الَّتِي تَقَـعُ فِي النَّـارِ يَقَعْنَ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ وَهُـمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَـا[3].حق (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَـةُ العَذَابِ) وسقطت تـاء التأنيث لوجهين أحدهما:الفاصل الذي بين الفعل والفاعل،ولو كان متصلاً لم يحسن ذلك،وثانيهما أن تأنيث الكلمة غير حقيقي بل مجازي[4] .

ولما ذكـر سبحانه فيمـا سبق أن لأهـل الشـقاوة ظلـلا مـن فـوقهم النـار ومـن تحتهم ظلل استدرك عنهم من كان من أهل السعادة فقال (لَكِنِ الّذِينَ اتّقَواْ رَبّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مّن فَوْقِهَا غُرَفٌ) استدراك بين ما يشبه النقيضين والضدين وهما المؤمنون والكافرون وأحوالهما

---

[1] أبو السعود ٢٤٩/٧

[2] فتح القدير:٤٥٦/٤

[3] البخاري:كتاب الرقاق باب الانتهاء عن المعاصي ٣٢٣/١٣

[4] المحرر الوجيز :٥٢٦/٤

والمراد بالذين اتقوا الموصوفون بما عدد من الصفات الفاضلة والغرف جمع غرفة وهي ما ارتفع من البناء كالقصور الشاهقة (لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ) قال الواحدي : لهم منازل في الجنة رفيعة وفوقها منازل أرفع منها [1] مبنيات محكمات مزخرفات عاليات كثيرة جليلة بعضها فوق بعض.ووصف لنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ هذا الغرف .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنْ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ قَالَ بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ [2].

ومعنى مبنية أنها مبنية بناء المنازل فى إحكام أساسها وقوة بنائها وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها أو مبنية بناءا يتأتى معه جري الأنهار من تحتها وذلك على خلاف قصور الدنيا فيفيد الوصف بذلك أنها سويت تسوية البناء على الأرض وجعلت سطحا واحدا يتأتى معه جري الأنهار عليه.والوصف المذكور فيه إشارة إلى رفعة شأن الغرف حيث بين أن الله تعالى بانيها وماذا عسى يقال في بناء بناه جل وعلا؟ و قيل هو كالتمهيد لقوله تعالى (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا) أي من تحت تلك الغرف الفوقانيات والتحتانيات. وقال الألوسي: وصفت الغرف بذلك للإشارة إلى أنها مهيأة

[1] الوسيط: ٥٧٦/٣

[2] البخاري: كتاب بدأ الخلق باب ما جاء في صفة الجنة ...(٣٦٨٠/٦

معدة لهم قد فرغ من أمرها كما هو ظاهر الوصف لا أنها تبنى يوم القيامة لهم وفي ذلك تعظيم لشأن المتقين[1].

(تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ) أي من تحت تلك الغرف الفوقانيات والتحتانيات وفى ذلك كمال لبهجتها وزيادة لرونقها وَعْدَ اللّهِ لاَ يُخْلِفُ اللّهُ الْمِيعَادَ لما في خلفه من النقص المستحيل عليه عز وجل[2].

فقه الآيات:-

في الآيات حث على **التقوى** كما جاءت الوصية بها في آيات كثيرة الأَرْضِ قال جل جلاله (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ) (النساء:١٣١) (يا أَيهَا الذِينَ ءامَنُوا اتقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُن إِلا وَأَنتُم مسلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢). فالتقوى جماع الخيرات (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ) (الطلاق:٣) وهى الموصلة لأعلى الدرجات في الجنات (مَّثَلُ الجَنَّةِ الَتِي وُعِدَ المتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ) (الرعد:٣٥) وللتقوى علامات قال ابن عطاء :للتقوى ظاهر وباطن فظاهرها محافظة الحدود وباطنه النية والإخلاص .وقيل يستدل على تقوى الرجل بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضى فيما قد نال ، حسن الصبر على ما قد فات ، وقال طلق ابن حبيب التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله [3]. قال أحمد بن عصام وسمعت خالي عبد العزيز

---

[1] الألوسي :٢٥٤/٢٣

[2] الشهاب: ١٩٣/٨

[3] الرسالة القشيرية صـ٨٨

بن يوسف يقول أردت الخروج من البصرة فبدأت بيحيى بن سعيد فودعته ثم ودعت عبد الرحمن بن مهدي ثم ودعت زهيرا فقلت هل من حاجة فقال نعم إلا أنها مهمة قال ففرحت فقال اتق الله فوالله لأن يتقيه عبد أحب إلي من أن تتحول لى هذه السواري كلها ذهبا . عن عبد الله بن عبد الغفار الكرماني قال سمعت زهير بن نعيم الباني يقول لوددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاع الله عن محمد بن يونس بن موسى قال سمعت زهير بن نعيم الباني وقال له رجل يا أبا عبد الرحمن توصي بشيء قال نعم احذر أن يأخذك الله وأنت على غفلة[1]

في الآيات حث على **الصبر** والآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له لأن كل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه وهذه فضيلة عظيمة،ومثوبة جليلة تقتضى أن على كل راغب فى ثواب الله وطامع فيما عنده من الخير أن يتوفر على الصبر ويزم نفسه بزمامه ويقيدها بقيده فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل ولا يجلب خيرا قد سلب ولا يدفع مكروها قد وقع وإذا تصور العاقل هذا حق تصوره وتعقله حق تعقله علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم وظفر بهذا الجزاء الخطير وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه فضم إلى مصيبته مصيبة أخرى ولم يظفر بغير الجزع وما أحسن قول من قال

أرى الصبر محمودا وعنه مذاهب * فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

[1] صفة الصفوة٤/٨-٩

هناك يحق الصبر والصبر واجب * وما كان منه للضرورة أوجب[1]

وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.وهو ثلاثة أنواع صبر على طاعة الله . وصبر عن معصية الله.وصبر على امتحان الله .والصبر مثل اسمه مر مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل.وقيل تجرع الصبر ، فإن قتلك قتلك شهيدا ، وإن أحياك أحياك عزيزا [2].

قال الراغب: الصبر الإمساك في ضيق، صبرت الشيء حبسته، فالصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل أو الشرع.

وتختلف معانيه بتعلقاته: فإن كان عن مصيبة سمي صبرا فقط، وإن كان في لقاء عدو سمي شجاعة، وإن كان عن كلام سمي كتمانا، وإن كان عن تعاطي ما نهى عنه سمي عفة[3]. قال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر لا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرضه الشكر والصبر، أما الشكر فواضح وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه الصبر والشكر، أما الصبر فواضح وأما الشكر فالقيام بحق الله عليه في تلك البلية، فإن لله على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء. ثم الصبر على ثلاثة أقسام: صبر عن المعصية فلا يرتكبها، وصبر على الطاعة حتى يؤديها، وصبر على البلية فلا يشكو ربه فيها.والمرء لا بد له من واحدة من هذه الثلاث، فالصبر لازم له أبدا لا خروج له عنه، والصبر سبب في حصول كل كمال،، روى أحمد في " كتاب

---

[1] فتح القدير :٤/٤٥٤

[2] مدارج السالكين ١٥٢/٢- ١٥٨

[3] المفردات : صـ ٢٧٣

الزهـد " بسـند صـحيح عـن مجاهـد قـال قـال عمـر " وجـدنا خـير عيشـنا الصبر.عَنْ أبي يحيى صهيب بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له[1].وعَنْ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لما ثقل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ جعل يتغشاه الكرب. فقالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها: وا كرب أبتاه! فقال: ليس عَلَى أبيك كرب بعد اليوم فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إِلَى جبريل ننعاه. فلما دفن قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها: أطابت أنفسكم أن تحثوا عَلَى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ التراب؟!.[2]

و عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ[3].

---

[1] رَوَاهُ مُسْلِمٌ: كتاب الزهد باب في أحاديث متفرقة ١٢٥/١٨

[2] البخاري: كتاب المغازي باب مرض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ووفاته ٧٣٥/٧

[3] البخاري: كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ٧١٦/٦

المعنى العام للآيات

وبعد أن بين مولانا حال صنفين من الناس رغبنا أن نكون من الفائزين فأرشدنا إلى تقواه وأخبرنا بأن أعمال المتقين وإن قلَّت يثيبهم عليها ربهم (وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً)(النساء: ٤٠)... وإن كانت هناك عوائق عن الطاعة فأرض الله واسعة فليرحل من الأرض التي تعيقه عن الطاعة إلى التي تسعد بطاعته، وليصبر على الهجرة والفراق والغربة،فللصابر أجر لا يُقدّر بل يغرف له غرفا،ولعظم شأن الطاعة ولبيان مكانة الدين أمر الله سبحانه سيد المخلصين بالإخلاص في عبادته وأمر أن يتسابق إلى طاعته . وليعلن للعالمين أن يخاف رب العالمين يخاف أن يعصيه وهو المعصوم ،فما بال من استهوتهم الشياطين ؟ يخاف الرسول وهو حبيب الرحمن خاف عذاب يوم عظيم وإن هذا الخوف لدرس للمتقين وتعريض بالعاصين وتهديد للمشركين ، والنجاة من هذا الهول وذاك العذاب الإخلاص في العبادة ، ومن لم ينزجر قلبه ويعود إليه رشده فليفعل ما يشاء وليعبد ما يهوى ،فالله غني عن العالمين ،والخاسر من خسر آخرته خسر نفسه في جهنم وخسر أهله لخسران نفسه سواء أكانوا معه في النار أم كانوا من أهل الجنة فلا لقاء معهم بل العدواة و التبري عنوان ذالك الخسران فهل بعد ذلك خسران لا ذلك هو الخسران الواضح المبين . نار من فوقهم ونار من تحتهم أحاط بهم العذاب وغشيهم العقاب أل من منزجر هل من متعظ ذلك العذاب يوم القيامة فالنجاة النجاة وفي العمر فرصة لنعود يا عبادي فاتقون نداء من الرب البر الرحيم اللهم اجعلنا من المتقين. وأول منازل التقوى التبرؤ من الشرك والإيمان بالله الواحد الأحد،الذين ابتعدوا عن عبادة

الشيطان وفارقوا طرقه ورجعوا إلى ربهم واستجابوا له وعادوا فجزائهم من ذي الفضل العظيم يبشرهم برحمة منه ورضوان ويبشرهم البشير النذير حيث استحقوا ذلك الفضل بتقواهم حيث يستمعون كلام الله بآذان واعية و قلوب خاشعة فيتبعونه فالقرآن الكريم أحسن القول وأعظم الكلام أولئك عظيمي الشأن منّ الله عليهم بالهدى ومن يكرمه الله بنعمة الهدى فقد منح الخير كله وكمل عقله فهو من أولوا الألباب ،أما الذين طغوا وبغوا واتبعوا الشهوات وحق عليهم وعيد الله بأنهم من المعذبين في النار فلا أحد يقدر على إنقاذهم أما من اتقى الشرك واجتنب السيئات وعمل الحسنات فلهم قصور شاهقة عظيمة بناها الرب العظيم تجري الأنهار من تحتها بهجة للناظرين وإنعاما لأهل النعيم وعدهم الله تلك الغرف وسينعمون فيها ويخلدون فيها يحمدون الله على ذلك الوعد فالله لا يخلف الميعاد.

التفكر في آيات الله تعالى

المناسبة بين الآيات:-

لما ذكر سبحانه الآخرة وما أعدها للمتقين في الجنة، فقد وصفها بوصف يوجب الرغبة فيها والشوق إليها أتبع ذلك بذكر الدنيا بما يوجب الرغبة عنها والنفرة منها فذكر تمثيلا لها في سرعة زوالها وقرب اضمحلالها مع ما في ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة وصنعه البديع وبيان طريق الهداية الموصل إلى الجنة [1] .فقال عز وجل

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنزَلَ مِنَ السّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرْضِ ثُمّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لأُوْلِي الألْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَىَ نُورٍ مّن رّبّهِ فَوَيْلٌ لّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مّن ذِكْرِ اللّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ(٢٢) اللّهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مّتَشَابِهاً مّثَانِيَ تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ ثُمّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىَ ذِكْرِ اللّهِ ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٢٣))

---

[1] نحوه بالرازي:١٣/٤١٨،٤١٧

اللغة:-

أَلَمْ تَرَ:الاستفهام تقريري، والخطاب لكل من يصلح له،والرؤية بصرية.

(فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ) فَسَلَكَهُ:أجراه وأدخله، يَنَابِيعَ :نصب على الحال أو بنزع الخافض أي في ينابيع.والينابيع جمع ينبوع والينبوع: العين الذي يخرج منه الماء،والنبع: خروج الماء من العين. يقال: نبع الماء ينبع نبوعا ونبعا.

ثُمّ يَهِيجُ:يقال للنبت إذا تم جفافه قد هاج يهيج هيجا[1].

وصيغة المضارع في قوله ثُمّ يُخْرِجُ وثُمّ يَهِيجُ: لاستحضار الصورة. وثم للتراخي في الرتبة أو الزمان.

ثُمّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً:متفتتا منكسرا من تحطم العود إذا تفتت من اليبس.

أَفَمَن شَرَحَ: من موصولة مبتدأ،وخبرها محذوف لدلالة ما بعده عليه تقديره كمن قسا قلبه. لِلإِسْلاَمِ اللام لام العلة أي شرحه لأجل الإِسْلاَمِ

أُوْلَئِكَ :مبتدأ، فِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ: خبر .

(كِتَاباً) بدل من أحسن الحديث أوحال منه. ومتشابها صفة لـ(كِتَاباً) و مثاني صفة أخرى ل(كِتَاباً) أو حال أخرى منه.

مثاني:جمع مُثنّى على غير قياس:أي مردد ومكرر.

تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ:الجملة صفة لـ(كِتَاباً)أوحال منه، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثر لسامعيه، بعد بيان أوصافه في نفسه ولتقرير كونه أحسن الحديث.

تَقْشَعِرّ: الاقشعرار التقبض يقال اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضا شديدا وتركيبه من القشع وهو الأديم اليابس قد ضم إليه الراء ليكون رباعيا ودالا

---

[1] معاني القرآن للنحاس ٦/١٦٥

على معنى زائد يقال:اقشعر جلده وقف شعره إذا عرض له خوف شديد من أمر هائل دهمه بغتة[1]. عُدى تلين بإلى ضمن معنى فعل يتعدى بها كأنه قيل سكنت واطمأنت إلى ذكر الله[2] لينة غير منقبضة.

ذَلِكَ مبتدأ وهُدَى اللَّهِ خبره أي ذلك الكتاب هدى الله.

تأملات في الآيات البينات:-

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً) استئناف وارد إما

١- لتمثيل الحياة الدنيا في سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من أحوال الزرع تحذيرا من الاغترار بزهرتها.

٢-أو للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته سبحانه وإحكام حكمته ورحمته.والمراد بالماء المطر وبالسماء جهة العلو

(فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ)سلكه في ينابيع أي عيون ومجاري كائنة في الأرض كالعروق في الأجساد،والآية تدل على أن ذلك الماء يسلكه الله تعالى في ينابيع في الأرض وما فيها هو الماء المنزل من السماء.عن ابن عباس أنه قال في الآية ليس في الأرض ماء إلا ما أنزل الله تعالى من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعد[3].

يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ) أي بواسطته مراعاة للحكمة فقد جعل الله لكل شيء سببا (زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ) يخرج بذلك الماء من الأرض زرعا مختلفا

---

[1] الكشاف:٣٦٥/٣ ، أبو السعود ٢٥١/٧

[2] السراج المنير:٤٤٤/٣

[3] ابن أبي حاتم: ٣٢٤٩/١٠

ألوانه من أصفر وأخضر وأحمر أو من بر وشعير وغيرهما إذا كان المراد بالألوان الأصناف، أو كيفياته مطلقا من الألوان والطعوم وغيرهما، وشمل الزرع المقتات وغيره. (ثُمَّ يَهِيجُ) ييبس (فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً) تراه بعد خضرته ونضارته وحسن رونقه مصفرا قد ذهبت خضرته ونضارته (ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً) فتاتا متكسرا كأن لم يغن بالأمس، ولكون هذه الحالة من الآثار القوية علقت بجعل الله تعالى كالإخراج. ولأن الفعل الواقع بعد قوله (ثُمَّ يَهِيجُ) مسند إلى الله تعالى وهو قوله (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً) فكذلك الفعل بعده (ثُمَّ يَجْعَلُهُ) وقال في سورة الحديد (ثم يكون حطاما) لأن الفعل قبله في مسند إلى النبات وهو (أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ) (الحديد: ٢٠)وكذلك ما بعده وهو(ثُمَّ يَكُونُ) فوافق في السورتين ما قبله وما بعده[١]. (إِنَّ فِي ذَلِكَ) إشارة إلى ما ذكر تفصيلا وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الغرابة (لَذِكْرَىَ) أي للبعث من القبور وإحياء الموتى على ما يوجبه هذا المثال المذكور (لَذِكْرَىَ لأُوْلِي الألْبَابِ) لتذكيرا عظيما لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل، وتنبيها لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك حال الحياة الدنيا وسرعة زوالها وفنائها،فلا يغترون ببهجتها ولا يفتنون بفتنتها[٢]. وبذلك يكون ما تقدم من الآيات ترغيبا في الآخرة وهذه تنفيرا عن الدنيا . قال الشوكاني: تذكير الأهل العقول الصحيحة فإنهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها فيتفكرون ويعتبرون ويعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم وقرب التقضي وذهاب بهجتها وزوال رونقها ونضارتها فإذا أنتج لهم التفكر

[١] أبو السعود ٢٥٠/٧، البرهان للكرماني ص٢٣٥

[٢] المحرر الوجيز ٥٢٧/٤ أبو السعود:٢٥٠/٧

والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها والميل إليها وإيثارها على دار النعيم الدائم والحياة المستمرة واللذة الخالصة ولم يبق معهم شك في أن الله قادر على البعث والحشر لأن من قدر على هذا قدر على ذلك[1].

(أَفَمَن شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ) استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولي الألباب والشرح في الأصل البسط والمد للحم ونحوه ويكنى به عن التوسيع وتجوز به هنا عن خلق النفس الناطقة مستعدة استعدادا تاما للقبول بجامع عدم التأبي عن القبول وسهولة الحصول. أو شرح الله صدره استعارة لتحصيله للنظر الجيد،والإيمان بالله قبول العقل هدى الإسلام و محبته.وهذا القبول تكسب المسلم فرحا بحاله ومسرة برضا ربه فيكون أمره كله خير[2].

والهمزة للإنكار داخلة على محذوف.والتقدير أكل الناس سواء فمن شرح الله تعالى صدره وخلقه مستعدا للإسلام فبقي على الفطرة الأصلية ولم تتغير بالعوارض المكتسبة القادحة فيها فَهُوَ بسب ذلك مستقر عَلَىَ نُورٍ عظيم مّن رّبّهِ)وهو اللطف الإلهي المشرق عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق كمن قسا قلبه وحرج صدره بتبديل فطرة الله تعالى بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات الغي والضلال فأعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لا يتذكر بها ولا يغتنمها[3].وقال عَلَىَ نُورٍ ليدل على استمرار ذلك واستقراره في النور.

---

[1] فتح القدير:٤/٤٥٨

[2] المحرر الوجيز:٤/٥٢٧

[3] أبو السعود ٧/٢٥٠

وهذه الآية كقوله عز وجل: { أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا } قال قتادة: النور كتاب الله به يؤخذ وإليه ينتهي[1]. عن ابن مسعود أنه قال:تلا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ هذه الآية(أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ) الخ فقلنا:يا رسول الله كيف انشراح الصدر قال:إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح قلنا:فما علامة ذلك يا رسول الله فقال:الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله[2]. والجواب في الحديث من قبيل الأسلوب الحكيم[3].(فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ) أي من أجل ذكره سبحانه الذي حقه أن تلين منه القلوب أي إذا ذكر الله تعالى عندهم أو آياته عز وجل اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى (فَزَادَتْهُمْ رِجْسَاً) (التوبة:١٢٥)[4] قال الرازي: لم يبعد أن يكون ذكر الله يوجب النور في الهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية[5].

وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ذكر شرح الصدر لأن توسعته وجعله محلا للإسلام دون القلب الذي فيه، يدل على شدته وإفراط كثرته التي فاضت حتى ملأت الصدر فضلا عن القلب وإسناده إلى الله تعالى في أنه على أتم الوجوه لأنه فعل قادر حكيم ،وقابله بالقساوة مع أن

---

[1] الطبري :١٣٤/٢٣

[2] ذكر الطبري روايات متعددة وذكرها ابن كثير و قال: ولهذا الحديث طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً)الطبري٢١/٨،٢٠ ابن كثير ١٧٥/٢

[3] الألوسي : ٢٥٧/٢٣

[4] أبو السعود ٢٥٠/٧

[5] أفاده الرازي :٤٢١/١٣

مقتضى المقابلة أن يعبر بالضيق لأن القساوة تقتضي عدم قبول شيء بخلاف الضيق فإنه مشعر بقبول شيء قليل، لم يقل جعل الله قلوبهم قاسية للإشارة إلى غاية لزومها لهم حتى كأنها لو لم تجعل لتحققت فيهم بمقتضى ذواتهم وأما إسنادها إلى القلوب دون الصدور فللتنصيص على فساد هذا العضو الذي إذا فسد فسد الجسد كله واعتبر الجمع في هؤلاء الكفرة والأفراد في أولئك المؤمنين حيث قال سبحانه(أَفَمَن شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ)دون أفمن شرح الله صدورهم للإشارة إلى أن المؤمنين وإن تعددوا كرجل واحد و الكفار ليسوا كذلك أُوْلَئِكَ البعداء المتصفون بما ذكر من قسوة القلوب (فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) ظاهر كونه ضلالا[1].

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) هو القرآن الكريم وكونه حديثا بمعنى كونه كلاما محدثا به لا بمعنى كونه مقابلا للقديم وجوز أن يكون إطلاق الحديث هنا على القرآن من باب المشاكلة،فعن ابن عباس أن قوما من الصحابة قالوا يا رسول الله حدثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر فنزلت[2].

وفي إيقاع اسم الله تعالى مبتدأ وبناء نزل عليه تفخيم لأحسن الحديث واستشهاد على أحسنيته وتأكيد لاستناده إلى الله عز وجل وأن مثله لا يمكن أن يتكلم به غيره سبحانه أما التفخيم فلأنه من باب الخليفة عند فلان وأما الاستشهاد على أحسنيته فلكونه ممن لا يتصور أكمل منه بل لا كمال لشيء ما في جنبه بوجه وأما توكيد الاستناد إليه تعالى فمن التقوى وأما إن مثله لا يمكن أن يتكلم به غيره سبحانه فلمكان التناسب لأن أكمل

---

[1] الألوسي: ٢٥٨/٢٣

[2] الطبري:١٣٥/٢٣

الحديث إنما يكون من أكمل متكلم ضرورة كِتَاباً مّتَشَابِهاً يشبه بعضه بعضا في الصحة والإحكام ولصدق بعضه بعضا وتناسب ألفاظه في الفصاحة وتجاوب نظمه في الإعجاز.ل اختلاف فيه و لا تناقض مّثَانِيَ مردد ومكرر لما كرر وثني من أحكامه ومواعظه وقصصه وقيل:لأنه يثنى في التلاوة وجوز أن يكون جمع مثنى بالفتح مخففا من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قوله تعالى (ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ) (سورة الملك: ٤) بمعنى كرة بعد كرة[١]. ومثل لبيك وسعديك أي إجابة بعد إجابة وإسعادا بعد إسعاد،والمراد أنه جمع لمعنى التكرير والإعادة كما ثني كرتين لذلك لكن استعمال المثنى في هذا المعنى أكثر لأنه أول مراتب التكرار ويحتمل أن يراد أن مثنى بمعنى التكرير والإعادة كما أن صريح المثنى كذلك في نحو كرتين ثم جمع للمبالغة.ووصف كِتَاباً وهو مفرد بوصف مّثَانِيَ وهو مقتض للتعدد؛لأن هذا الوصف جرى عليه باعتبار تفاصيله وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير.كما نقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول هو أحكام ومواعظ وأقاصيص مثاني والأصل كتابا متشابها فصولا مثاني ويجوز أن يكون تمييزا محولاً عن الفاعل والأصل متشابها مثانيه فحُوّل ونكر لأن الأكثر التنكير وهذا نحو رأيت رجلا حسنا شمائل[٢]. والقرآن كله متشابه أي في الإتقان والإحكام والإعجاز، وكله مُحكم أي كله متقن لا اختلاف فيه ولا تناقض . وبعضه مُحكم وبعضه متشابه أي بعضه ظاهر المعنى ،وبعضه غير واضح المعنى بل فيه

---

[١] أبو السعود ٢٥١/٧

[٢] الكشاف ٣٩٥/٣ السراج المنير ٤٤٣/٣ الألوسي ٢٥٨/٢٣ ، ٢٥٩

الخفي.وما لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم كما هو معروف في كتب علوم القرآن .

(تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ) قال الزجاج إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ذكرت آيات الرحمة. والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم رهبة وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى عند سماع آيات وعده تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة .

(ثُمّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىَ ذِكْرِ اللّهِ) واقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة لأن رحمته سبقت غضبه فلأصالة رحمته إذا ذكر الله لم يخطر بالبال إلا كونه رءوفا رحيما.

وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها. قال أبو الحسن بن الخوارزمي: من استوحش من الوحدة وهو حافظ لكتاب الله عز وجل فإن تلك وحشة لا تزول أبداً [1] .

هذا وليس في الآية أكثر من نعت أوليائه باقشعرار الجلود من القرآن ثم سكونهم إلى رحمته عز وجل وليس فيها نعتهم بالصعق والتواجد كما يفعله بعض الناس.عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال:قلت لجدتي أسماء: كيف كان يصنع أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إذا قرؤا القرآن قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم

[1] الزهد للبيهقي صـ٩٧

قلت:فإن ناسا هاهنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم غشية قالت أعوذ بالله تعالى من الشيطان[1].

وقال ابن عمر وقد رأى ساقطا من سماع القرآن فقال إنا لنخشى الله تعالى وما نسقط،هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم.

وعن قتادة أنه قال في الآية: هذا نعت أولياء الله تعالى قال:تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى ولم ينعتهم الله سبحانه بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع وإنما هو من الشيطان[2].

وَلما سُئِلَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، ، عَمَّنْ يَسْمَعُ الْقُرْآنَ فَيُصْعَقُ قَالَ: «مِيعَادُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا عَلَى حَائِطٍ فَيُقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَإِنْ سَقَطُوا فَهُمْ كَمَا يَقُولُونَ»[3].

قال الألوسي :فهذه أخبار ناعية على بعض المتصوفة صعقهم وتواجدهم عند سماع القرآن ويقول مشايخهم إن ذلك لضعف القلوب عن تحمل الوارد وليس فاعلو ذلك في الكمال كالصحابة أهل الصدر الأول في قوة التحمل فما هو إلا دليل النقص، بدليل السالك إذا أكمل رسخ وقوي قلبه ولم يصدر منه شيء من ذلك،ويقولون:ليس في الآية أكثر من إثبات الاقشعرار واللين وليس فيها نفي أن يصيبهم حال آخر بل في الآية إشعار بأن المذكور حال الراسخين الكاملين حيث قال سبحانه (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم) أي أن

[1] ابن أبي حاتم: ٢٣٤٩/١٠

[2] تفسير عبد الرزاق: ١٧٣/٣

[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٦٥)

لهم رسوخا في الخشية حتى يعلموا بها،ثم أنه متى كان الأمر ضروريا كالعطاس لا اعتراض على من يتصف به[1].

(ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىَ ذِكْرِ اللَّهِ)لأنهم يرجون رحمته ولطفه، ويعلمون أن رحمته وسعت كل شيء وأنها سبقت غضبه،فيسكن روعهم وتطمئن قلوبهم.فهم (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً)بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تعالى:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) وقال تعالى:{وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماًّ وَعُمْيَاناً}فلم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مُصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة.كما أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم القرآن الكريم تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم.(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ) أي الكتاب الكريم الذي ذكرت أوصافه و أحواله(يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ) من يشاء الله هدايته بأن يوفقه للتأمل في دلائل إعجازه وأنه من عنده عز وجل فالقرآن الكريم (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (المائدة:١٦).(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ) من لم يشأ الله هدايته بسوء استعداده ولإعراضه عن طريق الهدى. قال الطبرسي : أي ومن أضله الله عن طريق الجنة بكفره ومعاصيه فليس له هاد يهديه إليها[2].(فَمَا لَهُ

---

[1] روح البيان للبروسوي :١٠٠/٨ ، الألوسي : ٢٥٩/٢٣ ،٢٦٠

[2] الطبرسي :١٥٧/٢٣

مِنْ هَادٍ)يخلصه من ورطة الضلال.فالعيب فيه هو لا في القرآن؛ لأن القرآن الكريم سبب في الهداية لا الضلالة.

المعنى العام للآيات

من دلائل قدرة خالق القوى والقُدر إنزال الماء من السماء من سحاب كالجبال يغيث الله أهل الأرض بنعمة الماء وينشر رحمته ويجعل هذا الماء عيونا وأنهارا فننتفع به الأرض فتنبت بقدرة الله تعالى زرعا مختلفا بهجيا حسنا ثم لا يلبث هذا الزرع حتى يجف وييبس ويتفتت وإن المؤمن ليأخذ من هذا التحويل السريع العجيب لهذا الزرع ليأخذ منه عبرة وعظة فهكذا كل ما على الأرض في الحياة الدنيا يبدأ وينتهي ويحي ويموت لا أمان لها و لا ثبات لما عليها فالسعيد لمن عمل لدار البقاء واحتسب عمله لواسع الكرم والعطاء.ففي تلك الآيات موعظة لأصحاب العقول السليمة، وليكونوا مستحقين لشرح صدورهم للإسلام فيهديهم ربهم إليه ويثبتهم عليه وكما أن الماء ينزل من السماء فيحي الله به الأرض وهذا يذكرنا بالقرآن الذي ينزل على القلوب وكما أن الأرض منها الصخور الصماء ومنها القيعان ومنها الأودية _ كذلك القلوب منها القلب المنكوس الذي يقسو بذكر الله ،فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا قلب طُمس عليه، فويل لمن قسى قلبه وأعرض عن ذكر ربه ومع أن بذكر الله تطمئن القلوب فهناك قلوب تقسوا بذكر الله جهلا وغفلة واغترارا أولئك في ضلال مبين، ومن هذه القلوب القلب الذي يتسع ويحي بذكر الله، فالله نزّل أحسن الحديث القرآن الكريم يشبه بعضه بعضا في الحسن والإتقان والإعجاز والبيان، مكرر مردد كي يتعظ الناس

ويعتبر المؤمنون ،تقشعر منه جلود المتقين الخائفين ثم يهدأ روعهم وتلين قلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله ذلك هدى الله القرآن الكريم كلام رب العالمين يهدي الله به من يشاء فيخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن استحق الضلال فمَن الذي يهديه بعد أن أضله الله بسوء استعداده.حقا لا هادي له.

المناسبة بين الآيات:–

وبعد أن بين سبحانه تفرده بالألوهية وإنزال القرآن هداية للناس، بين عقاب الضالين المعرضين عن هذا الهدى، ثم رغبهم تبارك وتعالى في الرجوع إلى فطرة الله وهى الإسلام.فقال سبحانه

(أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوَءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ(٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٢٩))

اللغة:-

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوَءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَن اسم موصول مبتدأ وخبره محذوف تقديره:كمن أمن العذاب.والاستفهام تقريري أو إنكاري،والفاء عاطفة على جملة مقدرة التقدير أكل الناس سواء فمن يتقي الخ.والأسلوب فيه تهكم لأن من شأن الوجه أن يُوقَى لا أن يُتقى به. أي أن من يطلب

وقاية وجهه لا يجد ما يقيه إلا وجهه.(وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ) (الكهف:٢٩).

سُوَءَ الْعَذَابِ: مفعول يتقي فهو منصوب،وأصله مفعول ثان إذ أصله وقى نفسه العذاب،فلما صِيغ منه الافتعال صار الفعل متعديا إلى مفعول واحد.وهو الذي كان مفعولا ثانيا. وإضافة سُوَءَ إلى الْعَذَابِ من إضافة الصفة إلى الموصوف.

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ:عطف على يتقي والقائل خزنة النار وصيغة الماضي للدلالة على التحقق.وقيل الواو للحال والجملة حال من ضمير يتقي بإضمار قد أو بدون إضمار.

حَيْثُ:ظرف مكان،أي أتاهم العذاب من مكان لا يشعرون به.

للناس: اللام للاستغراق أي جميع الناس.

(قُرْآناً عَرَبِيّاً) حال من اسم الإشارة هذا، تسمى حال مؤكدة أي بالنسبة لما قبلها وتسمى حالا موطئة بالنسبة لما بعدها؛لأن الحال في الحقيقة هو عربيا،وقرآنا توطئة له نحو جاءني زيد رجلا صالحا،وذلك بمنزلة عربيا محققا.

ضَرَبْنَا:بصيغة الماضي لتقريب زمن الحال من زمن الماضي للتشويق إلى علم هذا المثل فيجعل كالأخبار عن أمر حصل وفيه التنبيه على تحقق وقوعه .أو يقال إن ضرب مستعمل في معنى الأمر اضرب لهم مثلا وذكر بصيغة الخبر كي يسند إلى الله تنويها بشأنه و للاهتمام به لأنه محاجة للمشركين لإبطال شركهم[1] .

[1] التحرير :٣٩٩/٢٣-٤٠١

ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رّجُلاً :رّجُلاً المفعول الأول و مَثَلاً هو المفعول الثاني وأخر المفعول الأول للتشويق إليه وليتصل به ما هو من تتمته التي هي العمدة في التمثيل،أو مَثَلاً مفعول ضرب و رّجُلاً الخ بدل منه بدل كل من كل.

و فِيهِ: خبر مقدم وشُرَكَآءُ : مبتدأ و متشاكسون: صفته، والنكرة وإن وصفت يحسن تقديم خبرها وجملة فِيهِ شُرَكَآءُ صفة رّجُلاً والرابط الهاء.

والتشاكس:الاختلاف، قال الفراء متشاكسون أي مختلفون[1].

هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً: مَثَلاً : أي حالا وصفة.ونصب مَثَلاً على التمييز المحول عن الفاعل لأن الأصل هل يستوي مثلهما، وإنما قال هل يستويان مثلا ولم يقل مثلين لأنهما جميعاً ضرباً مثلاً واحدا فأفرد التمييز لأن الأصل في التمييز الإفراد لكونه مبيناً للجنس.وعُرف التعدد من فاعل يستويان. ومثله (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) (المؤمنون: ٥٠) ولم يقل آيتين لأن شأنهما واحد[2].

القراءات:-

وَرَجُلاً سَلَماً :قرأ الجمهور سَلَماً بفتح السين واللام على الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف أي ذا سلم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب سالما بالألف وكسر اللام اسم فاعل من سلم فهو سالم أي خالص من الشركة[3].

---

[1] معاني القرآن للفراء: ٤١٩/٢

[2] معاني القرآن للفراء: ٤١٩/٢ ، زاد المسير ١٨١/٧،١٨٠

[3] حجة القراءات :ص٦٢٢ ،شرح طيبة النشر ١٩٧/٥

تأملات في الآيات البينات:-

(أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوَءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تباين حال المهتدي والضال.أفمن شأنه أن يتقي بوجهه الذي هو أشرف أعضائه سوء العذاب يوم القيامة لأن يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يصيبه شيء من ذلك ولا يحتاج إلى الاتقاء.

قال الزجاج المعنى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة وعبارة ابن عطية:هذا تقرير وتعجيب والمعنى: (أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوَءَ الْعَذَابِ) كالمنعمين في الجنة[1]. قال عطاء وابن زيد: يُرمى به مكتوفا في النار فأول شيء تمس منه وجهه وقال مجاهد يجر على وجهه في النار[2].(وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ) وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلة الأمر في قوله (ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) أي وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصي[3].وأُوثر تكسبون على تعملون لأن خطابهم كان في حال اتقائهم سوء العذاب ولا يخلو حال المعذب من التبرم الذي هو كالإنكار على المعذب فجيء بالصلة الدالة على أن ما ذاقوه جزاء ما اكتسبوه[4]،فتزداد حسرتهم ويعظم ندمهم.و هذه الآية كقوله (هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) (التوبة: ٣٣).(كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوي

[1] المحرر الوجيز:٥٢٨/٤

[2] تفسير مجاهد:٥٥٦/٢

[3] أبو السعود: ٢٥٢/٧

[4] التحرير ٣٩٤/٢٣:

إثر بيان ما يصيب الكل من العذاب الأخروي أي كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ من الأمم السالفة (فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ) المقدر لكل أمة منهم (مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ) من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم إتيانه منها بينما هم آمنون إذ أتاهم العذاب من الجهة التي توقعوا الأمن منها[1]، وذلك عند أمنهم وغفلتهم عن عقوبة الله لهم بتكذيبهم وذلك أشد على النفس كما قال تعالى(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ)(الأنعام:٤٤) (فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ) أي الذل والصغار في الحياة الدنيا كالمسخ والخسف والقتل والسبي والإجلاء وغير ذلك من فنون النكال والفاء تفسيرية(وَلَعَذَابُ الآَخِرَةِ)المعد لهم أَكْبَرُ وأعظم مما أصابهم في الدنيا لأنه في غاية الشدة ودائم لا يفتر عنهم (لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) أي لو كانوا من شأنهم أن يعلموا شيئا لعلموا ذلك واعتبروا به ولكنهم لم يعلموا وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ العظيم الشأن (مِن كُلِّ مَثَلٍ)مما يحتاجون إليه كقوله (مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ) أي من شيء يحتاجون إليه في أمر دينهم.

وقيل المعنى: ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)كي يتذكروا ويتعظوا.(قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) قال الضحاك أي غير مختلف وعن مجاهد غير ذي لبس[2].لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه وهو أبلغ من أن يقول مستقيماً؛لأن عوجاً نكرة وقعت في سياق النفي لأن في كلمة (غير) معنى النفي، والاستقامة يجوز أن تكون من وجه دون وجه،ونفي

[1] الرازي:١٣/٤٣٥

[2] تفسير مجاهد: ٢/٥٥٦

مصاحبة العوج عنه يقتضي نفي اتصافه به بالطريق الأولى كما أنه أبلغ من غير معوج،والعِوج بالكسر يقال في المعاني فيما يدرك بفكر وبصيرة والعَوج بالفتح يقال في الأعيان و يدرك بالحس وعبر بالأول لأنه مختص المعاني لأنه بلغ إلى حد لا يدرك العقل فيه عوجا فضلا عن الحسن[1]. (لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) علة لقوله لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) أي عَلَّل التذكر بالاتقاء،فهم إذا تذكروا كان حرياً بهم أن يتقوا؛لذا قدم التذكر على الاتقاء.(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ) المراد بضرب المثل هاهنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها.(وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً)الاستفهام للإنكار والاستبعاد والمعنى هل يستوي هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة ونياتهم متباينة متشاجرون لشكاسة أخلاقهم وسوء طبائعهم،كل منهم يدعي أنه عبده،فيتجاذبونه لقضاء حوائجهم ومهماتهم المختلفة فهو في تحير وتوزع قلب ؛يستخدمه كل واحد منهم فيتعب وينصب مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته. كلما أرضى واحداً غضب الباقون،هل يستوي هذا و رجلا خالصا لرجل فرد ليس لغيره سبيل إليه فهو في راحة عن التحير وتوزع القلب فهذا الذي يخدم واحدا لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضي عنه وإذا عصاه عفا عنه؟ فأحدهما في راحة بال واطمئنان في أعلى عليين،والآخر في لوم وعناء أسفل سافلين.

والسر في إبهام الفاضل والمفضول إشارة إلى كمال الظهور عند من له أدنى شعور فلا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما[2].وقال(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً) بالتثنية

---

[1] الكشاف: ٣٩٦/٣ ،السراج المنير ٤٤٥/٣ الألوسي ٢٦١/٢٣

[2] الرازي :٤٣٧/١٣ ،أبو السعود ٢٥٣/٧

لأجل بيان معنى زائدا وهو اختلاف النوع وجوز أن يكون ضمير يستويان للمثلين لأن التقدير فيما سبق مثل رجل ومثل رجل أي هل يستوي المثلان مثلين.وضرب الرجل مثلا لأنه أفطن لما شقي به أو سعد فإن الصبي و المرأة قد يغفلان عن ذلك[1].

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) له الحمد كله دون غيره من المعبودين وفيه تنبيه للموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة تقتضي الدوام على حمده تعالى وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عز وجل مستوجب لحمده تعالى وعبادته. قال السمرقندي:قولوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ)[2].

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره أو ليسوا من ذوي العلم فلا يعلمون ذلك فيبقون في حيرة الشرك والضلال.قال ابن عطية أضرب عن مقدر محذوف تقديره: الْحَمْدُ لِلَّهِ على ظهور الحجة وأن الأمر ليس كما يقولون (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)[3].

---

[1] الكشاف: ٣٩٧/٣،الألوسي ٢٦٢/٢٣

[2] بحر العلوم ١٥٠/٣

[3] المحرر الوجيز:٥٣٠/٤

المعنى العام للآيات

وهذه صورة من صور العذاب المعد للكافرين إن المعَذب لا يستطيع أن يحمي نفسه من النار فالإنسان المعذب في جهنم يقي نفسه بوجهه الذي يُوقَى إذا به يتقي به فالعذاب رهيب والألم شديد وزيادة في عذابه يقال له ولكل ظالم ذقوا الذي كسبتموه من سيئات وأوزار ها هي أغلال تسعر ونار تحرق وهؤلاء إن لم ينجوا أنفسهم في الدنيا فسوف يلحقهم العذاب والخزي في الدنيا قبل الآخرة فقد فعل السابقون مثل ما فعل هؤلاء - كذبوا وكفروا — فأتاهم العذاب العاجل من حيث لا يشعرون وسيحل بهم العذاب الآجل السرمدي الدائم ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (فهل من مدكر) ومن رحمة الله تعالى أنه سبحانه يضرب لنا مثلا لتظهر لنا صورة الشرك على حقيقته فالمشرك كالعبد الذي يتملكه شركاء مختلفون لا تتفق أوامرهم و لا تتحد مطالبهم فهو مشتت الفكر معهم،قلق من سوء أخلاقهم متعب مضطرب لتوزع مطالبهم أيستوي هذا مع من له سيد واحد أمره هين الحمد لله الذي بيّن لنا الحق وضرب لنا هذا المثل رحمة بنا و إرشادا لنا وإن كان أكثر الناس لا يعلمون

فالحمد لله على تلك النعمة العظيمة.

الموعد القيامة والحاكم رب العالمين

المناسبة بين الآيات:-

بعد أن بين لنا تبارك وتعالى الدلائل على وحدانيته وإبطال حجج المشركين الواهية،ورغب ورهب وأمر ونهى، بين سبحانه أن نهاية الجميع واحدة والمصير معروف اليوم يوم القيامة .والحاكم رب العالمين، ويقضي بين المتخاصمين، فالسعيد من سعد هذا اليوم والشقي من شقى هذا اليوم. فقال سبحانه

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠)ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ(٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤)لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩)مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى
فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ
(٤١))

اللغة-

مَيِّتٌ: صفة مشبهة تدل على الثبوت. وضمير الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم. قال أبو حيان:ويدخل معه مؤمنوا أمته، وضمير الجمع الغائب للكفار.

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ الاستفهام تقريري وتعريف الكافرين للجنس المفيد للاستغراق،فشمل الكافرين المتحدث عنهم شمولا أوليا[١].المثوى: المقام وهو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به يثوى ثواء وثويا.

ذَلِكَ: مبتدأ وهو إشارة إلى ما تقدم ذكره من جزائهم وخبره قوله جَزَاءُ المحْسِنِينَ.

(لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا) اللام متعلقة بيشاءون أو بالمحسنين أو بمحذوف أو بما قبله باعتبار فحواه.

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ): في محل نصب على الحال أي: أليس كافيك حال تخويفهم إياك.ويجوز أن تكون مستأنفة .

---

[١] التحرير: ٢٤/٧

(لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) اللَّهُ:لفظ الجلالة فاعل لفعل محذوف أي خلقهن الله
(أَفَرَأَيْتُم)الفاء واقعة في جواب شرط مقدر وجوز أن تكون عاطفة على مقدر أي أتفكرتم بعد ما أقررتم فرأيتم ما تدعون...
(مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ)مَن إما استفهامية أو اسم موصول وجملة يخزيه صفة عذاب

مقيم: دائم وفي الكلام مجاز في الظرف أو الإسناد وأصله مقيم صاحبه.
بِالْحَقِّ حال من مفعول نزلنا و من اسم موصول فاعل أي أنزلنا الكتاب ملتبسا أو ملتبسين بِالْحَقِّ
(مَكَانَتِكُمْ) حالتكم فالمكانة نقلت من المكان المحسوس إلى الحالة التي عليها الشخص واستعيرت لها استعارة محسوس لمعقول وهذا كما تستعار (حيث وهنا) للزمان بجامع الشمول والإحاطة[1].

القراءات :-

قرأ الجمهور (عبده) بالإفراد فالخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ و حجتهم قوله (وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ). وقرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي (عباده) بالجمع، أي محمدا والأنبياء قبله فالمعنى أليس الله بكاف عباده الأنبياء قبل كما كفى إبراهيم النار ونوحا الغرق ويونس ما دفع إليه فهو سبحانه كافيك كما كفى هؤلاء الرسل قبلك وعبارة الواحدي ومن قرأ

[1] الكشاف: ٣/٣٩٩

عباده فالمراد بالعباد الأنبياء،وذلك أن الأمم قصدتهم بالسوءوهو قوله (هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ) (غافر:٥) فكفاهم الله تعالى شر من عاداهم[١].

و قرأ الجمهور ممسكات وكاشفات في الموضعين بالإضافة،

و قرأ أبو عمرو وأبو بكر (كاشفات وممسكات) بالتنوين. وحجة الإضافة أن الإضافة قد استعملتها العرب في الماضي والمستقبل؛ وأن التنوين لم يستعمل إلا في المستقبل خاصة فلما كانا مستعملين وقد نزل بهما القرآن فقال جل جلاله (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ) أخذ بأكثر الوجهين أصلا وحجة أخرى وهو أنه يراد فيهما التنوين ثم يحذف التنوين للتخفيف. وحجة أبي عمرو أن الفعل منتظر وأنه مما لم يقع وما لم يقع من أسماء الفاعلين إذا كان في الحال فالوجه فيه النصب مفعولا به والمعنى هل هن يكشفن ضره، أو يمسكن رحمته عُنّي ،فهما اسم فاعل في معنى الاستقبال ونصب ما بعدهما[٢].

تأملات في الآيات البينات:-

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنّهُمْ مَّيِّتُونَ) قال أبو حيان: و لما لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل الباهرة، أخبر الجميع بأنهم ميتون وصائرون إليه،وأن اختصامكم يكون بين يديه يوم القيامة وهو الحكم العدل، فيتميز المحق من المبطل،وهو عليه السلام

[١] حجة القراءات: ٦٢٢/١ شرح طيبة النشر ١٩٨/٥ تفسير الوسيط لأبي الحسن على بن أحمد الواحدي تحقيق مجموعة من العلماء مكتبة الباز مكة المكرمة ٥٨١/٣، ٥٨٢

[٢] حجة القراءات ٦٢٣/١ شرح طيبة النشر ١٩٨/٥ وللأسف تدخل من علق على مفاتيح الغيب هنا فعقب على ما ذكره الرازي من القراءات فقال والقراءة الثانية هي المعتمدة من رواية حفص عن عاصم والموجودة في المصاحف التي بين أيدينا. فهو كلام مشوش قد يوهم أن القراءة الأخرى غير معتمدة أو أن ما بالمصاحف التي بين أيدنا هو المعتمد فقط فهذه كلها قراءات متواترة تعرف من كتب القراءات وهناك طبعات أُخر للمصاحف بالقراءات المتواترة الأخرى.

وأتباعه المحقون الفائزون بالظفر والغلبة، والكافرون هم المبطلون[1].وقيل:لما ذكرت من أول السورة إلى هنا البراهين القاطعة للشرك المستجلبة لفرط جهل المشركين،وعدم رجوعهم مع جهده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في ردهم إلى الحق وحرصه على هدايتهم ما حالي وحالهم فأجيب بأنك مهدت من الدعوة ما أردناه،وتم لك من ذلك ما قضيناه،ثم إنك ميت فتنال الأجر العظيم (وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ) فيجازيهم رب العالمين[2].

وتأكيد الجملة في إنهم ميتون للإشعار بأنهم في غفلة عظيمة كأنهم ينكرون الموت. وتأكيد الأولى دفعا لاستبعاد موته عليه الصلاة والسلام وقيل إن الموت مما تكرهه النفوس وتكره سماع خبره طبعا فكان مظنة أن لا يلتفت إلى الإخبار به، فأكد الحكم بوقوعه لذلك

قال الفراء والكسائي الميت بالتشديد من لم يمت وسيموت والميت بالتخفيف من قد مات وفارقته الروح[3].

قال الخليل أنشد أبو عمرو

وتسألني تفسير مَيْت و مَيّت * فدونك قد فسرت إن كنت تعقل
فمن كان ذا روح فذلك مَيّت * وما الميْت إلا من إلى القبر يحمل
[4].

(ثُمَّ إِنَّكُمْ) فيه تغليب المخاطب على الغائب[1]، يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ مالك أموركم تَخْتَصِمُونَ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من

[1] البحر:٩/١٩٨
[2] الألوسي :٢٣/٢٦٣
[3] الشوكاني : ٤/٤٦٢
[4] النسفي: ٤/٥٦

الأحكام والمواعظ،واجتهدت في دعوتهم إلى الحق، وهم قد يعتذرون بالباطل مثل(أَطَعْنَا سَادَتَنَا) ،و(وَجَدْنَا آبَاءَنَا)، و(غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا) ،والجمع بين (يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ) لزيادة التهويل ببيان أن اختصامهم ذلك في يوم عظيم عند مالك لأمورهم نافذ حكمه فيهم ولو اكتفى بالأول لاحتمل وقوع الاختصام فيما بينهم بدون مرافعة أو بمرافعة لكن ليست لدى مالك لأمورهم والاكتفاء بالثاني لا يقوم مقام ذكرهما لما في الصريح من التهويل العظيم.والمراد بذلك الاختصام العام،لا خصوص الاختصام بينه عليه الصلاة والسلام وبين الكفار. عن ابن عباس أنه قال في الآية يخاصم الصادق الكاذب والمظلوم الظالم والمهتدي الضال والضعيف المستكبر[2]، وعن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال:أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كان لزوجها وتشهد يداه ورجلاه بما كان لها ثم يدعى الرجل خادمه بمثل ذلك ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ثم دانق ولا قراريط ولكن حسنات هذا تدفع إلى هذا الذي ظلمه وسيئات هذا الذي ظلمه توضع عليه ثم يؤتى بالجبارين في مقامع من حديد فيقال أوردوهم إلى النار فوالله ما أدري يدخلونها أو كما قال الله وإن منكم إلا واردها[3].

[1] السراج المنير: ٤٤٦/٣

[2] الطبري: ٢/٢٤ من طريق علي بن أبي طلحة

[3] الطبراني:١٤٩/٤ وقال الهيثمي رواه الطبراني وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثي وهو ضعيف وقد وثقه سعيد بن منصور وقال: كان مالك يرضاه، وبقية رجاله رجال الصحيح المجمع ١٠/ ٦٣٣ قال السيوطي لا بأس به الدر المنثور ٢٢٧/٧

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال:لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين من قبل (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) قلنا: كيف نختصم ونبينا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فينا[1].وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال لما نزلت(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)قلت: يا رسول الله أينكر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال:نعم ينكر ذلك عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه قال الزبير فوالله إن الأمر لشديد[2].وعن إبراهيم النخعي قال:نزلت هذه الآية(إِنَّكَ مَيِّتٌ)الخ فقالوا وما خصومتنا ونحن إخوان فلما قتل عثمان بن عفان قالوا هذه خصومة ما بيننا[3].وظاهر قول النخعي قالت الصحابة ما خصومتنا ونحن إخوان يدل على أنه قول الكل.

ولأن قوله تعالى(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ)كلام مع الأمة كلهم موحدهم ومشركهم وكذلك قوله تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً) وقوله(بَلْ أَكْثَرُهُمْ)دون بل هم كالنص على ذلك فإذا قيل إنك ميت وجب أن يكون على نحو (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ)أي إنكم أيها النبي والمؤمنون فقد روعي من مفتتح السورة إلى هذا المقام التقابل بين الفريقين بين المؤمنين والمشركين لا بينه عليه الصلاة والسلام وحده وبين

[1] ابن أبي حاتم ٣٢٥٠/١٠ قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني ورجاله ثقات ١٠٠/٧

[2] أحمد ١٦٤/١،الترمذي: كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الزمر ٣٧٠/٥ قال أبو عيسى حسن صحيح. ابن أبي حاتم ٣٢٥٠/١٠ الطبري ٢/٢٤ قال الهيثمي رواه الطبراني و رجاله ثقات الجمع ١٠١/٧

[3] الطبري :٣/٢٤

الكفار وقوله تعالى (عِندَ رَبِّكُمْ) يدل على أن الاختصام يوم القيامة ولكن لا يختص باختصام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وحده والمشركين بل يتناوله أولا وكذلك اختصام المؤمنين والمشركين واختصام المؤمنين بعضهم مع بعض كاختصام عثمان رضي الله تعالى عنه يوم القيامة وقاتليه وهذا ما ذهب إليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم فالحق القول بعمومه [1].

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ)لا أحد أظلم ممن كذب على الله فادعى أن له ولدا أو شريكا أو صاحبة،أو أنه حرم ما لم يحرمه وأحل ما حرمه سبحانه (كَذَّبَ بِالصِّدْقِ)بالأمر الذي هو عين الحق ونفس الصدق وهو ما جاء به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من دعاء الناس إلى التوحيد وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ونهيهم عن محرماته وإخبارهم بالبعث والنشور وما أعد الله للمطيع والعاصي، (إِذْ جَاءَهُ) أي في أول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل ،فإذ فجائية كما صرح به الزمخشري [2]. قال الخفاجي:الأظهر أن المراد تكذيب الأنبياء عليهم السلام بعد ظهور المعجزات في أن ما جاؤوا به من عند الله تعالى لا مطلق التكذيب.و المراد أن هذا الكاذب المكذب أظلم من كل ظالم (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) أليس لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وتعالى وسارعوا إلى التكذيب بالصدق، وجمع الكافرين لمعنى من كما أن الإفراد في الضمائر السابقة باعتبار لفظها أو لجنس الكفر فيشمل أهل الكتاب ويدخل هؤلاء في الحكم دخولا أوليا.والمراد بيان كفاية جهنم مجازاة لهم. كأنه قيل أليست جهنم كافية للكافرين مثوى كقوله

[1] الألوسي :٢٤/٢٦٠، ٢٦١

[2] الكشاف: ٣/٣٩٨

سبحانه(حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا) (المجادلة :٨) تكفي عقوبة لكفرهم وتكذيبهم والكفاية مفهومة من السياق كما تقول لمن سأل شيئا ألم أنعم عليك؟ تريد كفاك سابق أنعامي عليك. (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) عن ابن عباس قوله والذي جاء بالصدق يقول من جاء بلا إله إلا الله وصدق به يعني رسوله[1].

والموصول المراد به الجنس،والمراد حينئذ به الرسل والمؤمنون .

وقيل (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ) هو الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والذي صدق به هو أبو بكر رضي الله تعالى عنه . وقال ابن عطية عن القول بالعموم هو أصوب الأقوال[2].واختار ابن جرير أن ذلك عام فى كل من دعا إلى توحيد الله وأرشد إلى ما شرعه لعباده...وقال : والصواب من القول في ذلك أن يقال إن الله تعالى ذكره عُنى بقوله (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)كل من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله والعمل بما ابتعث به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من بين رسل الله وأتباعه والمؤمنين به وأن يقال الصدق هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله والمصدق به المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائنا من كان من نبي الله وأتباعه ، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن قوله تعالى ذكره (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) عقب قوله (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ) وذلك ذم من الله للمفترين عليه المكذبين بتنزيله ووحيه الجاحدين وحدانيته فالواجب أن يكون عقيب ذلك مدح من كان بخلاف صفة هؤلاء المذمومين وهم

---

[1] الطبري: ٣/٢٤ من طريق علي بن أبي طلحة ، ابن أبي حاتم ٣٢٥١/١٠

[2] جامع البيان: ٤/٢٤، المحرر الوجيز ٥٣١/٤

الذين دعاهم إلى توحيد الله ووصفه بالصفة التي هو بها وتصديقهم بتنزيل الله ووحيه والذين هم كانوا كذلك يوم نزلت هذه الآية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ومن بعدهم القائمون في كل عصر وزمان بالدعاء إلى توحيد الله وحكم كتابه؛ لأن الله تعالى ذكره لم يخص وصفه بهذه الصفة التي في هذه الآية على أشخاص بأعيانهم ولا على أهل زمان دون غيرهم وإنما وصفهم بصفة ثم مدحهم بها وهي المجيء بالصدق والتصديق به فكل من كان كذلك وصفه فهو داخل في جملة هذه الآية إذا كان من بني آدم،ومن الدليل على صحة ما قلنا أن ذلك كذلك في قراءة ابن مسعود والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به فقد بين ذلك من قراءته أن الذي من قوله (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ) وإن كان مفردا فمعناه الجمع لأنه يراد به الجنس، وقد زعم بعض أهل العربية من البصريين أن الذي في هذا الموضع جعل في معنى جماعة بمنزلة من،ومما يؤيد ما قلنا أيضا قوله (أُوْلَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ)فجعل الخبر عن الذي جمعا لأنها في معنى الجمع. (أُوْلَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ) المتصفون بالتقوى التي هي طريق النجاة وسبيل الفلاح (لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ) بيان لما لهم في الآخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم في الدنيا من حسن الأعمال أي لهم كل ما يشاؤنه من جلب المنافع ودفع المضار في الآخرة لا في الجنة فقط؛لأن بعض ما يشاؤنه من تكفير السيئات والأمن الفزع الأكبر وسائر أهوال القيامة إنما يقع قبل دخول الجنة .(ذَلِكَ)الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤنه (جَزَاءُ المحْسِنِينَ) الذين أحسنوا أعمالهم والمراد بهم أولئك المحدث عنهم فأقيم الظاهر مقام الضمير للتنبيه على سبب حصول الجزاء وقيل المراد عموم المحسنين وهؤلاء يدخلون دخولا أوليا.وجوز أن يكون

متعلقا بقوله سبحانه (ذَلِكَ جَزَاءُ المحْسِنِينَ) أي بما يدل عليه من الثبوت أو بالمحسنين كما قال أبو حيان فكأنه قيل و ذَلِكَ جَزَاءُ أحسنوا أعمالهم لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوه.(لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا)وعدهم الله جميع ما يشاؤنه من زوال الضرر وحصول السرور ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد (أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا) الخ (وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ) ويعطيهم ثوابهم (بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) وتقديم التكفير على إعطاء الثواب لأن ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم لأن الله سبحانه إذا غفر لهم الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما دونه من باب أولى وقد قيل درء المضار أهم من جلب المسار وليس معنى الآية أنه يكفر عنهم الأسوأ فقط ولا يكفر عنهم السيئ، أو أنه يجزيهم عن الأحسن فحسب ولا يجزيهم عن الحسن؛ بل إضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه بل من إضافة أفعل التفضيل إلى غير المفضل عليه فهو من إضافة الشيء إلى بعضه قصدا إلى التوضيح و البيان من غير اعتبار تفضيل هنا ،كما في الأشج أعدل بني مروان ،ويوسف أحسن أخوته. والتفضيل على ما قال الزمخشري للدلالة على أن الزلة المكفرة عندهم هي الأسوأ لاستعظامهم المعصية مطلقا لشدة خوفهم لأنهم لما كانوا متقين كاملي التقي لم يكن في عملهم أسوأ إلا فرضا وتقديرا والحسن الذي يعملونه عند الله تعالى هو الأحسن لحسن إخلاصهم فيه[1] .

وقال سبحانه(بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) دون أحسن الذي كانوا يعملون يدل على أن حسنهم عند الله تعالى من الأحسن لدلالته على أن جميع

[1] الكشاف: ٣/٣٩٨

أجرهم يجري على ذلك الوجه فلو لم يعملوا إلا الأحسن كان التفضيل بحسب الأمر نفسه ولو كان في العمل الأحسن والحسن وكان الجزاء بالأحسن بأن ينظر إلى أحسن الأعمال فيجري الباقي في الجزاء على قياسه دل أن الحسن عند المجازي كالأحسن فصح على التقديرين أن حسنهم عند الله تعالى هو الأحسن.وقد يكون أحسن على بابه على معنى أنه تعالى ينظر إلى أحسن طاعاتهم فيجري سبحانه الباقي في الجزاء على قياسه لطفا وكرما.والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في صلة الموصول الثاني دون الأول للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيئة[1]. وقوله سبحانه في هذه السورة(بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) وفي النحل(وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)) خصت هذه السورة بالذي ليوافق ما قبله وهو(أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا) وقبله (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْق)وخصت النحل بما للموافقة أيضا وهو قوله (إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) (النحل:٩٥) (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ) (النحل:٩٦) فتلائم اللفظان في السورتين[2].

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)الاستفهام للإنكار والمراد إثبات كفايته سبحانه على أبلغ وجه كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها أو يتلعثم في الجواب بوجودها.و أُدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها[3]. والمراد بعبده إما رسول الله

[1] الكشاف ٣٩٨/٣ الألوسي ٤/٢٤

[2] البرهان للكرماني ص٢٣٣

[3] الكشاف ٣٩٨/٣ النسفي ٥٧/٤ ،٥٨

صلى الله تعالى عليه وسلم وأُيد بقوله تعالى(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ)الأوثان التي اتخذوها آلهة والخطاب له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أو المراد الجنس بعبده ويدخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخولاً أولياً وأُيد بقراءة(عباده) بالجمع وفسر بالأنبياء عليهم السلام والمؤمنين وعلى الأول يراد أيضا الأتباع،(وَيُخَوِّفُونَكَ) شامل لهم أيضا والكلام من قوله تعالى (فَمَنْ أَظْلَمُ) إلى هذا المقام لدلالته على أنه تعالى يكفي نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم أمر دينه ودنياه ويكفي أتباعه المؤمنين أيضا وفيه أنه سبحانه يكفيهم شر الكافرين من وجهين من طريق المقابلة ومن أنه داخل في كفاية دينه ودنياه عليه الصلاة والسلام وأتباعه،ويلائمه قوله تعالى (وَيُخَوِّفُونَكَ) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل»[1] .

(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ) حتى غفل عن كفايته تعالى لعبده وحفظه له طمعوا في تخويف النبي صلى الله ليه وسلم بما لا ينفع ولا يضر أصلا (فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) من حق عليه القضاء بضلاله فماله من هاد يهده إلى الرشد ويخرجه من الضلالة لأن ضلالهم قد ثبتته الأيام كما قال تعالى(كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (وَمَن يَهْدِ اللَّهُ) فيعلم أنه الله تعالى هو الكافي الحفيظ يجير ولا يجار عليه(فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ) عن الهداية ويوقعه في الضلالة إذ لا راد لفعله ولا معارض لإرادته عز وجل (أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ) غالب لا يغالب منيع

---

[1] ابن أبي حاتم: ٣٢٥٢/١٠

لا يمـانع ولا ينـازع (ذِي انتِقَـامٍ) ينـتقم مـن أعدائـه لأوليائـه وإظهـار الاسـم الجليل في موضع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة. وما يروى أن سبب نـزول الآية تخويـف الكفـار لسيدنا خالـد بن الوليـد عنـدما أرسـل لهـدم العـزى فهـذا مـن بـاب أنـه يـدخل في الآيـة لا سـيما وأن الآيـة مكيـة وإرسال خالـد في المدنيـة هـذا على فـرض صحة الأثـر.لكنـه مـن روايـة قتـادة وهى مرسلة[1].

(وَلَـئِن سَـأَلْتَهُم مَّـنْ خَلَـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُـولُنَّ اللَّـهُ) لظهـور الـدليل ووضـوح السـبيل ذكـر سـبحانه اعـترافهم إذا سـئلوا عـن الخـالق بأنـه الله مـع عبادتهم للأوثان وفى هذا أعظم دليل على أنهم كانوا في غفلة شديدة وجهالـة عظيمـة لأنهـم إذا علمـوا أن الخـالق لهـم ولمـا يعبـدون مـن دون الله هـو الله سبحانه فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق بل مخلوق وتشريكه مع خالقـه في العبـادة وقـد كـانوا يـذكرون بحسـن العقـول وكمـال الإدراك والفطنـة التامة ولكنهم لما قلدوا أسلافهم وأحسنوا الظن بهم هجروا ما يقتضيه العقل وعملوا بما هـو محض الجهـل ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يبكتهم بعد هـذا الاعتراف ويوبخهم فقـال: (قُلْ تبكيتا لهـم أَفَـرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ) إذا كان الخالق هو الله عز وجل كما أقـررتم فـأخبروني عـن آلهـتكم إن أرادني الله سـبحانه بضـر هـل يكشـفن عـني ذلـك الضـر .فالقـادر علـى إزالـة الضـر ودفعـه هـو الواحـد الأحـد.(أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ)أو إن أرادني بنفـع (هَـلْ هُـنَّ مُمْسِـكَاتُ رَحْمَتِـهِ) فيمنعهـا سـبحانه عـنى بحيـث لا تصـل إلى والرحمـة النعمـة والرخـاء. وتعليـق إرادة الضـر والرحمـة بنفسـه

[1] الرواية بالطبري :٢٤/٥

للرد في نحورهم حيث كانوا خوفوه من الأوثان ولما فيه من الإيذان بإمحاض النصيحة وقدم الضر لأن دفعه أهم[1] وإنما قال كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله ويخوفونك بالذين من دونه لأنهن على ما يصفونها به من الأنوثة يقولون اللات والعزى ومناة وتنبيها على كمال ضعفها لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة والذكورة من باب الشدة والصلابة وفيه تهكم بهم وبمعبوديهم[2].(قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ) كافي جل شأنه في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشر (عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتَوَكِّلُونَ) لا على غيره في كل شيء لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤْمِنِينَ) (الأنفال:٦٤) (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكنتم فيها.وجوز المعنى اعملوا على حسب تمكنكم واستطاعتكم والأمر للتهديد(إِنِّي عَامِلٌ)على مكانتي وحذف للاختصار و للعلم به مما قبله وفيه زيادة الوعيد ولبيان بأن حالته تزداد كل يوم قوة لأن الله تعالى ناصره ومعينه.فهو وعيد لهم وإطلاقه لزيادة الوعيد لأنه لو قيل على مكانتي لظن أنه عليه الصلاة والسلام على حالة واحدة لا تتغير ولا تزداد فلما أطلق أشعر بأن له صلى الله تعالى عليه وسلم كل زمان مكانة أخرى وأنه لا يزال يزداد قوة بنصر الله تعالى وتأييده ويؤيد ذلك قوله تعالى(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) فإنه دال على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم منصور عليهم في الدنيا والآخرة بدليل قوله تعالى(مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) يخزيه يهينه ويذله في الدنيا فيظهر عند ذلك أنه المبطل وخصمه المحق

---

[1] الكشاف: ٣٩٩/٣ الألوسي ٦/٢٤

[2] الكشاف ٣٩٩/٣ النسفي ٥٨/٤

والمراد بهذا العذاب عذاب الدنيا وما حل بهم من القتل والأسر والقهر والذلة[1] .ثم ذكر عذاب الآخرة فقال (وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) دائم مستمر في الدار الآخرة وهو عذاب النار فالأول إشارة إلى العذاب الدنيوي والثاني إشارة إلى العذاب الأخروي .ولما كان يعظم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إصرارهم على الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان لا بأن يهدى من ضل فقال (إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ) لأجلهم فإن مناط مصالحهم في المعاش والمعاد.

وقال الطبرسي...أو على أن الحق الذي يجب النظر في موجبه ومقتضاه فما صححه وجب تصحيحه وما أفسده وجب إفساده وما رغّب فيه وجب العمل به وما حذر منه وجب اجتنابه وما دعا إليه فهو الرشد وما صرف عنه فهو الغنى[2] .(فَمَنِ اهْتَدَى)فعمل بما فيه فَلِنَفْسِهِ إذ نفع به نفسه (وَمَن ضَلَّ) لم يمتثل أوامره وينزجر عن نواهيه (فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) فوبال ضلاله مقصور عليها (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك إلا البلاغ وقد بلغت.وقال الطبرسي بوكيل أي برقيب في إيصال الحق إلى قلوبهم وحفظه عليهم حتى لا يتركوه و لا ينصرفوا عنه إذ لا تقدر على إكراههم على الإسلام.وقيل بكفيل يلزمك إيمانهم فإنما عليك البلاغ[3]. وقال الخطيب الشربيني: (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ)أي لست مأمورا بأن تحملهم على الإيمان

[1] الكشاف ٣٩٩/٣ الألوسي ٦/٢٤ ،٧

[2] الطبرسي : ١٥٩/٣٢

[3] الطبرسي : ١٥٩/٣٢

على سبيل القهر؛بل القبول وعدمه مفوض إليهم،وذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقه الآيات

في الآيات تنبيه العباد على التيقظ للموت والاستعداد له بحسن الطاعة والخروج عن المظالم ،وقضاء الدين وإتيان الوصية في الحضر ، فضلا عن أوان الخروج عن وطنه إلي سفر ، فإنه لا يدري أين كتبت منيته من بقاع الأرض.وقال عون بن عبد الله:ما أحد ينزل الموت حق منزلته إلا عد غدا ليس من أجله، كم من مستقبل يوما لا يستكمله وراج غدا لا يبلغه،لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره.قال رجل لبشر ابن منصور عظني قال: عسكر الموت ينتظرونك .قال شميط بن عجلان : من جعل الموت نصب عينيه لم يبال الدنيا ولا بسعتها [1].

وأنشد بعضهم :

مشيناها خُطى كُتبت علينا * ومَن كُتبت عليه خطى مشاها
وأرزاقٌ لنا متفرقاتٌ فمن لم تأته منا أتاها
ومن كُتبت منيته بأرض * فليس يموت في أرض سواها([2])

وكفى بالموت واعظا للمؤمن فإنه يوقظ قلبه،فيسارع في الخيرات ويهري من المنهيات خشية أن يعاجله الموت،حيث لا فوت.

---

[1] صفة الصفوة : ٢/٦٠، ٢/٢٣٤ ، ٢/٢١١

[2] التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي تحقبق أحمد حجازي السقا طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٥ ١٩٨٥ ١/١٠٦

المعنى العام للآيات

من دلائل وحدانية الله الواحد القهار أنه يقهر الجميع بالموت،فالكل سيموت ويبقى الواحد القهار،الكل سيفنى ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام،هذا دليل على تفرده سبحانه بالخلق والأمر،والموت موعظة للمؤمن فيزداد في عمل الخير ولا يبالي بالدنيا فإنها ظل زائل،ويحتسب ما يناله في الدنيا من ضر،فإنه سينال أجره في الآخرة،فالموعد القيامة والحاكم هو الله،والميزان بالقسط،وكل صغير وكبير مستطر،ويوم القيامة سيكون يوم الخصومة بين المؤمن والكافر بين المظلوم والظالم،بين الرجل والمرأة،بين .... ويجلي الله لنا صورة من صور الخصومة عندما يعلن لنا أنه لا أحد أظلم ممن كذب على الله سبحانه وتعالى فنسب إليه ما لا يليق به ويشرك به ويكذب عليه سبحانه،هؤلاء حسبهم جهنم فهي كفيلة بهم وبعقابهم وجزائهم فهي مثواهم.أما من صدق بالقرآن وآمن بالرحمن وتمسك بالإيمان فهؤلاء هم المتقون لهم جزاء المتقين،من كل ما تشتهيه نفوسهم، فكل ما يتمنونه سيجدونه؛لأنه من عند ربهم الذي بيده كل شيء سبحانه وتعالى وذلك الجزاء العظيم بفضل تعالى، الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا، فلإحسانهم وعملهم الصالح وتقواهم وإيثارهم حق الله على نفوسهم وهواهم، يعاملهم الله بفضله فيتجاوز عن سيئاتهم بل يكفرها عنهم بل ينسيهم إياهم حتى لا تنغص عليهم عيشتهم في الجنة فلا يتذكرون سيئاتهم بل ويفيض الله عليهم من فضله فيعطهم أجرهم بأحسن ما عملوا من حسنات وطاعات جل الله في علاه.ثم تصور الآيات حقيقة المعركة بين الداعية إلى الحق وكل ما في الأرض من قوى مضادة وتصور الثقة واليقين

والطمأنينة في القلب المؤمن إنه لا يخاف إلا من مولاه والله حاميه وكافيه فيعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه بشيء يعلم،علم اليقين أنهم لن يمسوه إلا بما أذن لهم به فهو يجير ولا يجار عليه،فإن كل ما عاداه ومن عاداه تحت سلطان مولاه الواحد القهار.ولكن هؤلاء قوم استحقوا الضلال ومن يضلل الله فما له من هاد يهديه ومن يهديه الله الهادي فلا أحد يضله . فالله عزيز لا يغالب ذو انتقام ممن عاداه أو عادى من والاه.

الملك لله وحده

المناسبة بين الآيات :-

أبدعها العلامة الرازي فقال: ولأن الهداية والضلال من العبد لا يحصلان إلا من الله تعالى؛لأن الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم فكما أن الحياة واليقظة لا يحصلان إلا بخلق الله تعالى، كذلك الضلال لا يحصل إلا من الله تعالى ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى في القدر ومن عرف سر الله تعالى في القدر هانت عليه المصائب ولما بين سبحانه أن الهداية والضلال بتقديره قال تعالى(اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ)[1] .

(اللَّـهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسْمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّـهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ (٤٣)قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّـهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّـهِ مَا لَمْ يَكُونُوا

---

[1] الرازي :١٣/٤٤٧السراج المنير: ٣/٤٥٠

يَحْتَسِبُونَ (٤٧)وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ
نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ
يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا
كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١)
أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢))

اللغة:-

فِي مَنَامِهَا :متعلق بيتوفى أي يتوفاها في وقت نومها؛.وتقديم اسم الله وبناء يتوفى عليه للحصر أي الله يتوفى الأنفس حقيقة لا غيره عز وجل.

لآيَاتٍ : التنوين للتكثير والتعظيم.

أَمِ اتَّخَذُوا:أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة أي بل أتخذوا[١] من دون الله آلهة شفعاء لهم عند الله و الاستفهام المقدر لإنكار اتخاذهم.

(قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ)الهمزة داخلة على محذوف والواو للحال والجملة حال من فاعل الفعل المحذوف وجواب لو محذوف تقديره تتخذونهم وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم.وقيل الواو للعطف أي عطفت على شرطية حذفت لدلالة قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ

[١] أتخذوا بهمزة استفهام مفتوحة مقطوعة وبعدها همزة وصل و أصله أاتخذوا(الشهاب٨/٢٠٧)

يَعْقِلُونَ) عليها أي أيشفعون لو كانوا يملكون شيئا ويعقلون ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون[1].

جميعاً: حال

ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) تقديم إليه للفاصلة وللدلالة على الحصر أي إليه تعالى لا إلى أحد غيره [2].

(فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ): فاطر، عالم منصوبان على النداء.وتقديم المسند إليه في أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ للحصر أي أنت تحكم وحدك بين العباد لا غيرك .

انتصاب وحده على الحال،ومعناه منفرداً. أو على المصدر أي هو مفعول مطلق لفعل ذكر لبيان نوعه أي ذكراً وحْداً[3].

اشْمَأَزَّتْ :الاشمئزاز في اللغة الكراهية والنفور.وقال مجاهد: اشمأزت انقبضت.وعن قتادة: قال استكبرت وكفرت[4].

و إذا الأولى (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ): شرطية محلها النصب على الظرفية وعاملها الجواب وهو اشمأزت وكذا إذا الثانية وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ) محلها النصب على الظرفية والعامل فيها إما ذكر بعدها وإما يستبشرون

و أمّا إذا الثالثة إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ:فهي فجائية رابطة لجملة الجزاء بجملة الشرط كالفاء.فعلى القول بأنها حرف لا تحتاج إلى عامل. وعلى القول بأنها اسم وأنها ظرف زمان أو مكان عاملين هنا.فهي خبر المبتدأ بعدها[1].

---

[1] الألوسي : ٩/٢٤ ، التحرير ٢٧/٢٤

[2] الشهاب : ٢٠٨/٨

[3] التحرير :٢٩/٢٤

[4] تفسير عبد الرزاق: ١٧٤/٣ ، لسان العرب :٣٦٢/٥

(وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) الجملة حال من فاعل افتدوا.
(سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا): ما موصولة أي الذي كسبوه ،أو مصدرية أي كسبهم .[2]

الإنسان المراد به الجنس باعتبار بعض أفراده أو غالبها،وقيل المراد به الكفار فقط والأول أولى ولا يمنع من حمله على الجنس خصوص سببه لأن الاعتبار بعموم اللفظ –وفاء بحق النظم القرآني ووفاء بمدلوله –لا بخصوص السبب.
وإنما للحصر أي ما أوتيته لشيء من الأشياء إلا لأجل علم مني.والهاء للنعمة وجاء بالضمير في أوتيته مذكرا مع كونه راجعا إلى النعمة لأنها بمعنى الإنعام.
(قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) ضمير قالها لقوله تعالى إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ لأنها كلمة أو جملة .
(فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) يجوز أن تكون (ما) نافية أي لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئا وأن تكون استفهامية أي: أي شيء أغنى عنهم ذلك.
(وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ)من: للبيان فإنهم كلهم كانوا ظالمين أو للتبعيض فالمراد بالذين ظلموا من أصر على الظلم حتى تصيبهم قارعة وهم بعض منهم.

[1] الشهاب ٢٠٨/٨ والبحر ٢٠٨/٩، ٢٠٩

[2] البحر: ٢٠٩/٦

القراءات:-
قرأ الجمهور(قَضَى) مبنيا للفاعل أي قضى الله عليها الموت وقرأ حمزة والكسائي على البناء للمفعول والموت نائب الفاعل[1].

تأملات في الآيات البينات:-

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ) يقبضها عن الأبدان (حِينَ مَوْتِهَا) في وقت موتها (وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها بأن يقطع سبحانه تعلقها بالأبدان وتعلق التصرف فيها عنها ظاهر فقط فتوفي الأنفس حين الموت وتوفيها في وقت النوم بمعنى قبضها عن الأبدان وقطع تعلقها بها تعلق التصرف وكأن التوفي الذي يكون عند الموت لكونه شيئا واحدا في أول زمان الموت وبعد مضي أيام منه قيل حِينَ مَوْتِهَا والتوفي الذي يكون في وقت النوم لكونه يتفاوت في أول وقت النوم وبعد مضي زمان منه قوة وضعفا قيل فِي مَنَامِهَا أي وقت نومها، قال الشوكاني: يقبضها عن التصرف مع بقاء الروح في الجسد وقال الفراء المعنى ويقبض التي لم تمت عند انقضاء أجلها قال وقد يكون توفيها نومها فيكون التقدير على هذا والتي لم تمت وفاتها نومها قال الزجاج لكل إنسان نفسان أحدهما نفس التمييز وهى التي تفارقه إذا نام فلا يعقل والأخرى نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس. قال الطبرسي : قبض النوم يضاد اليقظة ،وقبض الموت يضاد الحياة[2].

[1] شرح طيبة النشر ١٩٨/٥، ١٩٩ ، حجة القراءات صـ ٦٢٤
[2] فتح القدير :٤٦٥/٤ الطبرسي :١٦٠/٢٣

(فَيُمْسِكُ الَتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ) أي الأنفس قضى في الأزل لا يردها إلى أبدانها وعبر عن ذلك بالإمساك ليناسب التوفي،وَيُرْسِلُ الأُخْرَى أي الأنفس الأخرى وهي النائمة إلى أبدانها فتكون كما كانت حال اليقظة متعلقة بها تعلق التصرف ظاهرا وباطنا وعبر بالإرسال رعاية للتقابل ليمسك إِلَى أَجَلٍ مُّسْمًّى هو الوقت المضروب للموت حقيقة وروي عن ابن عباس أن في ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هي التي بها العقل والتمييز والروح هي التي بها النفس والتحرك فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم[1]. وعليه فهناك فرق بين النفس والروح وقيل بعدم الفرق.و في كثير من الآثار الصحيحة أن المتوفي الأنفس التي تقابل الأبدان.عن أبي هريرة قال قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خَلَفَهُ عليه، ثم يقول باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، وإن أمسكت نفسي فارحمها،وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين [2].

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الإشارة إلى ما ذكر من التوفي والإمساك والإرسال والإفراد لتأويله بالمذكور أو نحوه وصيغة البعيد باعتبار مبدئه أو بعد منزلته. لآيَاتٍ أي إن فيما ذكر الآيات كثيرة عظيمة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته سبحانه لقوم يتفكرون في كيفية تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها عنها تارة بالكلية عند الموت وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها إلى أن يعيد الله تعالى الخلق وما يصيبها من السعادة والشقاوة وتارة يمسكها

---

[1] ابن أبي حاتم: ٣٢٥٢/١٠

[2] البخاري: كتاب الدعوات باب التعوذ والقراءة عند المنام ١٣٠/١١ و خَلَفَهُ أي حدث بعده فيه *الفتح ١٣١/١١

كمـا عنـد النـوم وإرسـالها حينـا بعـد حـين إلى انقضـاء آجالـه وقـال الواحـدي:لـدلالات على قدرتـه حيـث لم يغلـط في إمسـاك مـا يمسـك مـن الأرواح وإرسال ما يرسل منها[1].

(أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ) بل أتخذ قريش من دون الله شفعاء تشفع لهم عند الله تعالى في رفع العذاب وقيل:في أمورهم الدنيوية والأخروية مِن دُونِ اللَّهِ من دون رضاه أو إذنه لأنه سبحانه لا يشفع عنده إلا من أذن له ومثل هذه الجمادات مأذون لها وفهم من هذا السياق ولو لم يلاحظ هذا اقتضى أن الله تعالى شفيع ولا يطلق ذلك عليه سبحانه[2].

(قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ) أيشفعون وهم جمادات لا تقدر ولا تعلم أو أيشفعون على كل حال،أو قل أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئا من الأشياء فكيف يملكوا الشفاعة؟ (قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً)قال مجاهد لا يشفع عنده أحد عنده إلا بإذنه[3] قال البيضاوي لعله رد لما يجيبون به، وهو أن الشفعاء ليست الأصنام أنفسها بل أشخاص مقربون هي تماثيلهم والمعنى أنه تعالى مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة ما إلا بإذنه ورضاه وكلاهما مفقودان هاهنا وقد يستدل بهذه الآية على وجود الشفاعة في الجملة يوم القيامة لأن الملك أو الاختصاص الذي هو مفاد اللام هنا يقتضي الوجود فالاستدلال بها على نفي الشفاعة مطلقا في غاية الضعف (لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) استئناف تعليلي لكون الشفاعة جميعا

---

[1] الوسيط :٥٨٤/٣

[2] الشهاب ٢٠٧/٨

[3] الطبري : ٨/٢٤

له عز وجل كأنه قيل له ذلك لأنه جل وعلا مالك الملك كله فلا يتصرف أحد بشيء منه بدون إذنه ورضاه فالسماوات والأرض كناية عن كل ما سواه سبحانه (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) عطف على قوله تعالى لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) وكأنه تنصيف على مالكية الآخرة التي فيها معظم نفع الشفاعة وإيماء إلى انقطاع الملك الصوري عما سواه عز وجل وجوز أن يكون عطفا على قوله تعالى (لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ) وجعله أبو حيان تهديدا لهم كأنه قيل: ثم إليه ترجعون فتعلمون أنهم لا يشفعون لكم ويخيب سعيكم في عبادتكم.(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ) :أي مفردا بالذكر ولم تذكر معه آلهتهم أو إذا قيل لا إله إلا الله (اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ)انقبضت ونفرت كما في قوله تعالى (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً) (الإسراء:٤٦) (وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ) فرادى أو مع ذكر الله عز وجل (إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) لفرط افتتانهم بهم ونسيانهم حق الله تعالى. قال الرازي: لم يبعد أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية،ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية[1]. ونعوذ بالله من قلوب تقسوا بذكر الله وفي الآية مقابلة بين تقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه ، فإن الاستبشار أن يمتلىء القلب سرورا حتى ينبسط له بشرة الوجه والاشمئزاز أن يمتلىء غيظا وغما ينقبض عنه أديم الوجه كما يشاهد في وجه العابس المحزون،(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ولما لم يقبل المتمردون من الكفار ما جاءهم به صلى الله

---

[1] الرازي : ٤٢١/١٣

عليه وآله وسلم من الدعاء إلى الخير وصمموا على كفرهم أمر الله نبيه أن يرد الأمر إليه فإنه تعالى القادر على الأشياء بجملتها والعالم بالأحوال برمتها والمقصود من الأمر بذلك بيان حالهم ووعيده وتسليته صلى الله تعالى عليه وسلم وأن جده وسعيه معلوم مشكور عنده عز وجل وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى والدعاء بأسمائه العظمى من القدرة والعلم ونسبة الحكمة إليه.قال الطبرسي : وهذه بشارة للمؤمنين بالظفر والنصر؛لأنه سبحانه إنما أمره للإجابة لا محالة[1].

لما سئل الربيع بن خثيم عن قتل الحسين رضي الله تعالى عنه تأوه وتلا هذه الآية .

فإذا ذكر لك شيء مما جرى بين الصحابة قل(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الخ فإنه من الآداب التي ينبغي أن تحفظ[2] .

والمقصود من الحكم بين العباد الحكم بينه عليه الصلاة والسلام وبين هؤلاء الكفرة .

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ) الخ مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم الذي استدعاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وغاية شدته وفظاعته أي لو أن لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والذخائر (لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) المائدة :٣٦ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد. والمراد التمثيل لحالهم بحال من يحاول التخلص والفداء مما هو فيه بما

---

[1] الطبرسي :١٦٢/٢٣

[2] الشهاب:٢٠٨/٨، ٢٠٩ ، النيسابوري :٩/٢٤

ذكر فلا يتقبل منه وحاصله أن العذاب لازم لهم لا يخلصون منه ولو فرض هذا المحال ففيه من الوعيد والإقناط ما لا يخفى وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم زيادة مبالغة في الوعيد ونظير ذلك في الوعد قوله تعالى(فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ)(السجدة:١٧) (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) حين تعرض عليهم صحائفهم . (وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أي أحاط بهم جزاء ذلك مما أنذرهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مما كانوا ينكرونه ويكذبونه [١].قال مجاهد: عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات.وقال سفيان الثوري ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم. وجزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا فقيل له ما هذا الجزع قال أخاف آية من كتاب الله (وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب[٢].

هذا وقد قال سبحانه هنا (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) وفي الجاثية (مَا عَمِلُوا) قال كسبوا في الآية الأولى لأن ما كسبوا في هذه السورة وقع بين ألفاظ الكسب وهو (ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) وفي الجاثية وقع بين ألفاظ العمل وهو (مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وبعده (سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا) فخصت كل بما يناسب ألفاظها [٣].

---

[١] الوسيط : ٥٨٥/٣

[٢] النيسابوري :١٠/٢٤

[٣] البرهان للكرماني ص٢٣٣

(فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا) إخبار عن جنس الإنسان بما يغلب فيه (ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا)أعطيناه إياها تفضلا (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ) أي على علم مني بوجوه كسبه أو بأني سأعطاه لما لي من الاستحقاق أو على علم من الله تعالى بي واستحقاقي(بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ)إبطال لذلك القول والضمير للنعمة باعتبار لفظها كما أن الأول لها باعتبار معناها لأنها بمعنى الإنعام[1] .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)أن الأمر كذلك وهذا ظاهر في أن المراد بالإنسان الجنس إذ لو أُريد العهد لقيل لكنه لا يعلم أو لكنهم لا يعلمون .

وعطف هنا (فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ)بالفاء وما بعدها عطف على قوله (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ) وهي لترتيبه عليه والغرض منه التهكم والتحميق وفيه ذمهم بالمناقضة والتعكيس حيث أنهم يشمئزون عن ذكر الله تعال وحده،ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مسهم ضر دعوا مَن اشمأزوا مِن ذكره دون مَن استبشروا بذكره،وهذا كما تقول فلان يسيء إلى فلان فإذا احتاج سأله،فأحسَن إليه.والجمل الواقعة من قوله سبحانه (قُلِ اللَّهُمَّ .... يَسْتَهْزِئُونَ) اعتراض مؤكد للإنكار عليهم. (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) مثل قارون و غيره من المفترين الجاحدين لنعم الله. والمراد قالوا مثل هذه المقالة أو قالوها بعينها ولاتحاد صورة اللفظ تعد شيئا واحدا في العرف (فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) من متاع الدنيا وزينتها وما يجمعونه منها. (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) أصابهم جزاء سيئات كسبهم أو الذي كسبوه.وسُمى الجزاء سيئات لوقوعها في مقابلة سيئاتهم،وقد يقال لجزاء السيئة سيئة فيكون ذلك من باب المشاكلة نحو قوله تعالى (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا)(الشورى : ٤٠)

[1] الدر المصون ٩/٤٣٢، ٤٣٣

وإذا كان المعنى على جعل جزاء جميع ما كسبوا سيئا دل الكلام على أن جميع ما كسبوه سيء ؛إذ لو كان فيه حسن لجوزيا عليه جزاء حسنا. وهذا كقوله سبحانه(فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (العنكبوت:٤٠) هذا عقاب السابقين في الدنا وعقاب الآخرة أشد وأخزى (وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ)المشركين حيث (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (لقمان:١٣) (سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)كما أصاب الذين من قبلهم والمراد به العذاب الدنيوي وقد قحطوا سبع سنين وقتل ببدر صناديدهم (وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ) بفائتين وفيه إشارة إلى العذاب الأخروي.(أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ) أن يبسطه له (وَيَقْدِرُ) لمن يشاء أن يقدر له غير أن يكون لأحد ما مدخل في ذلك حيث حبس عنهم الرزق ثم بسطه لهم (إِنَّ فِي ذَلِكَ)في الذي ذكر لآيَاتٍ دالة على أن الحوادث كافة من الله تعالى،والأسباب في الحقيقة ملغاة (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) فهم المستدلون بها على مدلولاتها،وخص المؤمنين لأنهم المنتفعون بالآيات. ومثل الآية قوله تعالى (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الشورى:١٢) فكل شيء عنده بمقدار وله الحكمة في الإعطاء والمنع والقبض والبسط سبحانه سبحانه .

المعنى العام للآيات

من دلائل تفرد الله الواحد الأحد في الملك قبض الأرواح و إماتة الأحياء فالكل مملوك لله تعالى إن شاء قبض أرواح الجميع وإن شاء أبقى الجميع وإن شاء أمسك البعض و أرسل البعض إلى أجل مسمى هذه الدلائل لابد أن نقف عندها وأن نتعظ بها ففي تلك آيات وبراهين لمن تفكر وتدبر وأما من أهمل عقله و اتبع هواه كمن اتخذ من غير إذن الله شفعاء مع أنهم لا يعقلون، ولأن الكفار لا يتفكرون ولا يستفيدون من عقولهم فقد اتخذوا من غير إذن مولاهم شفعاء والحقيقة أن هؤلاء الشعفاء أموات غير أحياء وما يشعرون ،ولا يعقلون حتى معنى الشفاعة والحق أنه لا يملك شفاعة الشفعاء إلا الله فهو المنفرد بالتصرف في ملكه أليس هو ملك السماوات والأرض فعال لما يريد في الدنيا والآخرة لأنه له مالكهما فالكل يرجع إليه والكل تحت إرادته ومع ظهور تلك الصفات العظيمة نجد قوما إذا ذكر غيره فرحوا واستشبروا فسبحان من له العظمة والكمال فاطر السماوات والأرض هو وحده الحكم بين عباده فيما هم فيه يختلفون ولا كلام لنا مع هؤلاء ولننتظر لهم يوما يجعل الولدان شيبا ويقولون ياليتنا كنا ترابا.بل لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه وأرادوا الافتداء به ما تقبل منهم فلهم سوء العذاب يوم القيامة ولا خلاص لهم من هذا العذاب وفاجأهم غضب الله عليهم.وظهر لهم جزاء أعمالهم السيئة وأحاط ما كانوا به يسخرون والإنسان كثيرا ما ينسى فضل اله عليه من كشف الضر ومنح الفضل بل قد يتمادى وينسب كل ذلك لنفسه كما فعل من قبله من الجاحدين لفضل الله تعالى فاستحقوا غضب الله وسوف يلحق بأتباعهم وأمثالهم ما لحق

السابقي والحق أن القبض والبسط والإعطاء والمنع بيد الله وحده وفي ذلك آية للمؤمنين .

طريق التوبة

المناسبة بين الآيات:-

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده للظالمين من عذاب شديد دعا الله سبحانه وتعالى عباده إلى التوبة سبيل النجاة من ذلك العذاب. فقال سبحانه

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً (٥٣)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ (٥٤)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٥٥)أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦)أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ المُتَّقِينَ (٥٧)أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الكَافِرِينَ (٥٩)وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١))

اللغة:-

(قُلْ يَا عِبَادِيَ):الإضافة في عبادي للعهد أو للتشريف

(أَسْرَفُوا): الإسراف هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان في الإنفاق أشهر[١] .وعُدي بعلي لأنه ضُمّن معنى الجناية،وقيل هو مضمن معنى الحمل.

جميعا:حال من الذنوب. وَأَنِيبُوا :أصل الإنابة الرجوع أي ارجعوا.

(أَن تَقُولَ نَفْسٌ): مفعول من أجله بتقدير مضاف:كراهة وهو منصوب بفعل محذوف أي أنذركم وأمركم بأحسن ما أنزل إليكم كراهة أن تقول.أو التقدير لئلا تقول.ومن لا يشترط للنصب اتحاد الفاعل يجوز كون الناصب أنيبوا أو اتبعوا.

لو: للتمني وانتصاب أكون إما لكونه معطوفا على كرة فإنها مصدر وأكون في تأويل المصدر، وإما لكونه جواب التمني المفهوم من قوله لو أن لي كرة فأكون منصوب في جوابها.

---

[١] المفردات مادة سرف صـ٣٠٢

(نَفْسٌ): التنكير للتبعيض لأن القائل بعض الأنفس، ويكفي ذلك في الوعيد لأن كل نفس يحتمل أن تكون تلك النفس. ورجح ذلك أبو حيان. أو التنكير للتكثير[١].

(يَا حَسْرَتَى): بالألف بدل ياء الإضافة ،والتحسر الاغتمام على ما فات والألف في يا حسرتا هي ياء المتكلم والمعنى يا حسرتي على الإضافة قال الفراء والعرب تحول الياء إلى الألف في كل كلام معناه الاستغاثة ويخرج على لفظ الدعاء وشبهت الحسرة بالعاقل الذي ينادى ليقبل.والمعنى:يا حسرتي احضري فهذا وقتك.فأنا محتاج إليك أي إلى التحسر وشاع ذلك في كلامهم حتى صارت هذه الكلمة كالمثل لشدة التحسر والندم والأسف.وحرف الاستعلاء على للدلالة على تمكن التحسر[٢].

(وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ):إن المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة والجملة في محل نصب على الحال أي فرطت في حال سخريتي، أو استئناف إخبار عن نفسه بما كان عليه في الدنيا لا حال.

(عَلَى مَا فَرَّطتُ) أي بسبب تفريطي فعلى تعليلية و ما مصدرية كما في قوله تعالى (وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ).

(وَجُوهُهُم): مبتدأ و مُّسْوَدَّةٌ: خبر إن كانت ترى من الرؤية البصرية فجملة (وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ)حالية وتعلق الرؤية البصرية بالأجسام وألوانها أظهر من تعلق القلبية بها وإن كانت قلبية فهي في محل نصب على أنها المفعول الثاني

---

[١] البحر :٢١٣/٩

[٢] معاني القرآن للفراء: ٤٢١/٢، زاد المسير : ١٩٢/٧، الألو سي٢٤/ و التحرير ٤٥/٢٤

لترى. قيل واعتبار الرؤية بصرية أبلغ في تفضيحهم وتشهير فظاعة حالهم لا سيما مع عموم الخطاب[1].

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ):الاستفهام تقريري. (بِمَفَازَتِهِمْ):اسم مصدر كالفلاح،أو مصدر ميمي من فاز. قال الراغب :هي مصدر فاز والاسم الفوز ويراد بها الظفر بالبغية على أتم وجه. والفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة[2].والباء للملابسة متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول أي ملتبسين بمفازتهم.أو سببية أي بسبب ما حصلوا عليه من الفوز.

(لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ):في محل نصب على الحال من الموصول الَّذِينَ اتَّقَوْا وكذلك وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ: في محل نصب على الحال أي ينفى السوء والحزن عنهم

قرأ الجمهور: (بِمَفَازَتِهِمْ) على الإفراد،والمفازة مصدر مثل الفوز فإفراد المفازة كإفراد الفوز. وأفردت لعدم اللبس إذ لا يتصور أن يكون لهم فوز واحد وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بمفازاتهم جمعا، ووجه الجمع أن المصادر قد تجمع إذا اختلفت أجناسها لأن لكل واحد مفازة غير مفازة الآخر ولتكون على التعدد صريحا[3].

سبب النزول:-

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أنزلت (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا) الآية في مشركي أهل مكة.عن ابن عباس أيضا أنها نزلت في مشركي مكة لما

[1] الدر المصون :٤٣٨/٩

[2] المفردات مادة فوز ص٣٨٧

[3] حجة القراءات: ٦٢٤/١ شرح طيبة النشر ٢٠٠/٥ الشهاب ٢١٩/٨

قالوا إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك وقتل الأنفس وغير ذلك[1].و عن ابن عمر قال كنا نقول ليس لمفتتن توبة وما الله بقابل منه شيئا عرفوا الله وآمنوا به وصدقوا رسوله ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم وكانوا يقولونه لأنفسهم فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة أنزل الله فيهم (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا) الآيات قال ابن عمر فكتبتها بيدي ثم بعثت بها إلى هشام بن العاصي[2].عن أبي سعيد قال لما أسلم وحشي أنزل الله والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق قال وحشي وأصحابه قد ارتكبنا هذا كله فأنزل الله (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا) الآية، ووردت روايات أخر لعلها من باب مما يدخل في الآية[3].
وعبارة الواحدي:المفسرون كلهم قالوا:إن هذه الآية نزلت في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام،كالشرك،وقتل النفس، ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم،والقتال ضده والزنا، فأنزل الله هذه الآية وفرح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بهذه الآية ورآها هو و أصحابه من أوسع الآيات في مغفرة الذنوب[4].

تأملات في الآيات البينات:-

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ) أي أفرطوا في المعاصي و قد جنوا على أنفسهم عليها.والمراد بالعباد المؤمنون فكأنه قيل أيها المؤمنون

---

[1] ابن أبي حاتم: ٣٢٥٣/١٠ الطبري ١٠/٢٤

[2] ابن أبي حاتم:٣٢٥٣/١٠ ،

[3] الطبري: ١٠،١١/٢٤ ، ابن أبي حاتم: ٣٢٥٣/١٠ الدر المنثور ٧/ ٢٣٥-٢٣٧

[4] الوسيط :٥٨٨/٣، ٥٨٩

المذنبون لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ) لا تيأسوا من مغفرته سبحانه وتفضله عز وجل فالمغفرة مدرجة في الرحمة أو الرحمة مستلزمة لها لأنه لا يتصور الرحمة لمن لم يغفر له.والنهي عن القنوط يقتضى الأمر بالرجاء .(إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) تعليل النهي عن اليأس من رحمة الله . والتذييل بقوله سبحانه (إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ) تعليل لقوله (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) أي لأنه عظيم المغفرة عظيم الرحمة ؛ فيَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً.

والمراد بمغفرة الذنوب عدم المؤاخذة بها في الظاهر والباطن وهو المراد بسترها وقيل المراد محوها من الصحائف بالكلية مع التجافي عنها.

وهذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه كما قال ابن مسعود و علي رضي الله عنهما ؛لاشتمالها على أعظم بشارة فإنه أولا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب ثم عقب ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب فالنهى عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى وتخصيص الإسراف بأنفسهم فكأنه قيل ضرر الذنوب عائد عليهم لا عليّ فيكفي ذلك من غير ضرر آخر واستحقاق العقاب عقاب عند أولي الألباب. ثم جاء بما لا يبقى بعده شك فقال (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ) فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده كأنه قال إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان إلا ما أخرجه نص القرآن وهو الشرك (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِه وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب بل أكد ذلك بقوله جَمِيعاً .. وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلا إنه هو الغفور

الرحيم أي كثير المغفرة والرحمة عظيمهما واسعهما ...[1] وإن التبشير وعدم التقنيط جاء في كتاب الله ودعا إليه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ (يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّروا[2])و الجمع بين هذه الآية وبين قوله(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) هو أن كل ذنب كائنا ما كان ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له،ويمكن أن يقال إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعا يدل على أنه يشاء غفرانها جميعا وذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين فلم يبق بين الآيتين تعارض [3].ومنع المعتزلة مغفرة الكبائر والعفو عنها من غير توبة وقالوا:إنها وردت في غير موضع من القرآن الكريم مقيدة بالتوبة فإطلاقها هنا يحمل على التقييد لاتحاد الواقعة وعدم احتمال النسخ وكون القرآن في حكم كلام واحد ...ورد الإمام الشوكاني على هذه الشبهة فقال:وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات فهو جمع بين الضب والنون... ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين وقد قال(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ)فلو كانت التوبة قيدا في المغفرة لم يكن

[1] الرازي :١٣/٤٥٧ الألوسي :٢٤/١٣-١٥

[2] البخاري : كتاب العلم باب ما كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يتخولهم بالموعظة ..١/١٩٦

[3] النيسابوري: ٢٤/١٢ الشهاب ٩/٢١٣ الألوسي ٢٤/ ١٣-١٦

للتنصيص على الشرك فائدة وقد قال سبحانه (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)(الرعد:٦)[١].

عن ثوبان-رضي الله عنه - قال:سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ما أحب أن ليس الدنيا وما فيها بهذه الآية(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ) إلى آخر الآية فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فسكت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ساعة ثم قال إلا ومن أشرك ثلاث مرات[٢]. ويؤيد إطلاق المغفرة حديث أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقرأ(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) ولا يبالي إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ[٣]. فإنه ليس للايبالي كثير حسن إن كانت المغفرة مشروطة بالتوبة. وعن ابن سيرين قال:قال علي كرم الله تعالى وجهه أي آية أوسع فجعلوا يذكرون آيات من القرآن(وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ) (النساء:١١٠) الآية ونحوها فقال علي كرم الله تعالى وجهه:ما في القرآن أوسع آية من (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ) الآية [٤]. وفي الآية رد على المرجئة الذين زعموا أنه لا يضر مع الإيمان شيء.(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ) ارجعوا إليه سبحانه بالإعراض عن معاصيه والندم عليها وقيل بالانقطاع إليه تعالى بالعبادة وذكر الرب كالتنبيه على العلة. وقال

---

[١] فتح القدير :٤/٤٧٠

[٢] الطبري: ٢٤/ ابن أبي حاتم١٠/٣٢٥٣ وذكره الهيثمي فقال رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف،وحديثه حسن * المجمع ١١٣/١٣ .قال الشهاب عن هذا الحديث وهو صحيح لكن في سنده ضعف كما قاله ابن حجر * ٢١٣/٨

[٣] الترمذي: كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الزمر ٣٧٠/٥وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ثابت عن شهر.قلت وشهر حديثه حسن.

[٤] الطبري:١١/٢٤

القشيري:الإنابة الرجوع بالكلية والفرق بين الإنابة والتوبة أن التائب يرجع من خوف العقوبة والمنيب يرجع استحياء لكرمه تعالى والإسلام له سبحانه الإخلاص في طاعاته عز وجل (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم) الخطاب للعباد المخاطبين فيما تقدم سواء أريد بهم المؤمنون أو ما يعمهم والكافرين والمراد ب(مَا أُنزِلَ)القرآن وهو كما أنزل إلى المؤمنين أنزل إلى الكافرين؛لأنه أنزل عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لدعوة الناس كافة والمراد بأحسنه ما تضمن الإرشاد إلى خير الدارين.وقيل:لعل الأحسن ما هو أنجي وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة.وفي ذكر الرب ترغيب في الإتباع.وقال ابن عطية معناه أن القرآن تضمن عقائد نيرة وأوامر ونواهي منجية وعدات على الطاعات والبر وحدودا على المعاصي ووعيدا على بعضها ، فالأحسن أن يسلك الإنسان طريق التفهّم والتحصيل ، وطريق الطاعة والانتهاء والعفو في الأمور ونحو ذلك ، فهو أحسن من أن يسلك طريق الغفلة والمعصية فيجدّ أو يقع تحت الوعيد[1].

(مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً) فجأة(وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ) لا تعلمون أصلا بمجيئه فلن تستطيعوا الفرار ولا النجاة.(أَن تَقُولَ نَفْسٌ) أنذركم وأمركم بأحسن ما أنزل إليكم كراهة أن تقول... يَا حَسْرَتَى أي يَا حَسْرَتَى احضري فهذا وقتك (عَلَى مَا فَرَّطتُ) بسبب تفريطي وتقصيري،والتفريط التقصير (فِي جَنبِ اللَّهِ) قال ابن عباس يريد على ما ضيعت من ثواب الله وقال مقاتل على ما ضيعت من ذكر الله وقال مجاهد والسدي على ما

[1] المحرر الوجيز:٤/٥٣٧

فرطت في أمر الله[1]. وقال الحسن:في طاعة الله وسعيد بن جبير في حق الله. ويرجع الأمر في الآخرة إلى طاعة الله تعالى ونحوها ولا يمكن إبقاء الكلام على حقيقته لتنزهه عز وجل من الجنب بالمعنى الحقيقي. والكل مجمعون على التنزيه ،قال الراغب: أصل الجنب الجارحة ثم يستعار للناحية والجهة التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال والمراد هنا الجهة مجازا والكلام على حذف مضاف أي في جنب طاعة الله أو في حقه تعالى أي ما يحق له سبحانه ويلزم وهو طاعته عز وجل[2].وقال ابن دقيق العيد في العقيدة: تقول في الصفات المشكلة أنها

حق وصدق على المعنى الذي أراده الله، ومن تأولها نظرنا فإن كان تأويله قريبا على مقتضى لسان العرب لم ننكر عليه، وإن كان بعيدا توقفنا عنه ورجعنا إلى التصديق مع التنزيه.وما كان منها معناه ظاهرا مفهوما من تخاطب العرب حملناه عليه لقوله (عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ) فإن المراد به في استعمالهم الشائع حق الله فلا يتوقف في حمله عليه، وكذا قوله " إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن " فإن المراد به إرادة قلب ابن آدم مصرفة بقدرة الله وما يوقعه فيه، وكذا قوله تعالى (فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ) معناه خرب الله بنيانهم، وقوله (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ) معناه لأجل الله، وقس على ذلك وهو تفصيل بالغ قل من تيقظ له[3]

[1] تفسير مجاهد٢/٥٥٩ الطبري ٢٤/١٣وذكرها أيضا ابن الجوزي في زاد المسير ٧/١٩٢

[2] المفردات :ص٩٩

[3]

والتفريط في جهة الطاعة كناية عن التفريط في الطاعة نفسها لأن من ضيع جهة ضيع ما فيها بطريق الأولى. وقال الإمام الرازي: سمي الجنب لأنه جانب من جوانب ذلك الشيء الذي يكون من لوازم الشيء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت المشابهة بين الجنب الذي هو العضو وبين ما يكون لازما للشيء وتابعا له لا جرم حسن إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر والطاعة[1]. (وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)المستهزئين بدين الله تعالى وأهله.قال قتادة:فلم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى جعل يسخر بأهل الطاعة[2].والمقصود من ذلك الإخبار والتحسر والتحزن(أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ) تعالى هداني لكنت من المتقين أي من الشرك والمعاصي.والهداية هنا الإرشاد والدلالة الموصلة.

وقال أبو حيان:أي خلق فيّ الهداية:بالإلجاء،أو بالوحي...وإنما يقول هذا تحيرا في أمره وتعللا بما يجدي علي كما تعللوا بإغواء الشياطين والرؤساء[3].

والظاهر أن هذه المقالة في الآخرة (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً) أي رجوعا إلى الحياة الدنيا(فَأَكُونَ مِنَ المحْسِنِينَ) العقيدة والعمل وقوله تعالى (بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الكَافِرِينَ) جواب من الله عز وجل لما تضمنه قول القائل(أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ فَأَكُونَ مِنَ المحْسِنِينَ) من نفي أن يكن الله تعالى هداه ورد عليه.قال الزمخشري: فإن قلت :كيف صح أن تقع بلى جوابا لغير منفي؟ فأجاب

[1] مفاتيح الغيب :٤٦٠/١٣

[2] الطبري :١٤/٢٤

[3] البحر :٢١٤/٩

قلت (لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي) فيه معنى ما هديت وقال الألوسي :ولا يشترط في الجواب ببلى تقدم النفي صريحا[1].

ولم يقرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله(لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي) حيث فُصل بينهما بآية. فنقول: هذا الجواب قد وقع موقعه اللائق به لأنه لو قُدم على القول الأخير وهو(أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً) الخ وأوقع بعده غير مفصول بينهما بها لم يحسن لتفكيك النظم فإن الجمل أو الأقوال الثلاث متناسبة متناسقة متلاصقة والتناسب بينهن أتم من التناسب بين القول الثاني وجوابه ولو أخر القول الثاني وجعل الثالث ثاني لم يحسن أيضا؛لأن رعاية الترتيب المعنوي -وهي أهم- تفوت إذ ذاك وذلك لأن التحسر على التفريط عند تطاير الصحف وبعده التعلل بعدم الهداية حيث يكون بعد مشاهدة حال المتقين واغتباطهم ولأنه للتسلي عن بعض التحسر أو من باب تمسك الغريق فهو لاحق، ثم بعد ذلك يكون تمني الرجوع بعد ذوق النار قال سبحانه : (وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤْمِنِينَ) (الأنعام: ٢٧)

وقال الطيبي: إن النفس —القائل -عند رؤية أهوال يوم القيامة يرى الناس مجزيين بأعمالهم فيتحسر على تفويت الأعمال عليها ثم قد يتعلل بأن التقصير لم يكن مني فإذا نظر وعلم أن التقصير كان منه تمني الرجوع[2].وظاهر السياق أن النفوس جمعت بين الأقوال الثلاثة وجيء بالواو

[1] الكشاف: ٤٠٥/٣ ،الشهاب ٢١٨/٨ الألوسي ١٨/٢٤

[2] الكشاف: ٤٠٥/٣ النيسابوري ٢٤/ ١٤ ،السراج المنير ٤٥٧/٣، الألوسي ١٨/٢٤

تنبيها على أن كل واحد يكفي صارفاً عن الكفر وداعياً إلى الإنابة واتباع أحسن ما أنزل.

وجاء سبحانه بخطاب المذكر في قوله (جَآءَتْكَ) و(كَذَّبْتَ) و(اسْتَكْبَرْتَ) و(كُنْتَ)؛لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث والمراد بالنفس الشخص قال المبرد تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد[1].

واستدل المعتزلة بالآية على أن العبد خالق لأفعاله وأجاب الأشاعرة بأن فعل العبد بقدرة من الله وتأثيره و إسناد الأفعال إلى العبد باعتبار قدرته الكاسبة، لا كما ذهب إليه المعتزلة من أن العبد مستقل في إيجاد أفعاله[2] .

(وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) بما ينالهم من الشدة التي تغير ألوانهم حقيقة فسواد الوجوه حقيقة علامة لهم. أو يكون ذلك من باب المجاز لا أنها تكون مسودة حقيقة لما يلحقهم من الكآبة والشدة ويظهر عليهم من آثار الجهل بالله عز وجل يتوهم فيهم ذلك[3].

الرؤية بصرية،لأن المقصود تفضيحهم و إظهار سوء حالهم،والخطاب لسيدنا رسول الله عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أو لكل من تتأتى منه الرؤية،والمراد بالذين كذبوا أولئك القائلون المتحسرون فهو من باب إقامة الظاهر مقام المضمر (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)أي مقام للمتكبرين الذين جاءتهم آيات الله فكذبوا بها واستكبروا عن قبولها والانقياد لها وهو تقرير لرؤيتهم كذلك. وكذبهم على الله تعالى لوصفهم الله بما لا يليق به

---

[1] البحر :٢١٥/٩

[2] الألوسي : ١٩/٢٤

[3] المحرر الوجيز:٥٣٩/٤ الرازي :٤٦٥/١٣

سبحانه من نسبة الولد والصاحبة والشريك فقد قال سبحانه(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)(الأعراف:٢٨) ونحو ذلك تعالى عما يصفون علوا كبيرا وقيل لوصفهم له تعالى بما لا يليق في الدنيا وقولهم في الآخرة (لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي)المتضمن دعوى أن الله سبحانه لم يهدهم ولم يرشدهم. (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا) ما اتصف به أولئك المتكبرون (بِمَفَازَتِهِمْ) أي ينجيهم الله بفوزهم أي بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة فينجيهم الله تعالى من جهنم مثوى المتكبرين ملتبسين بفلاحهم وظفرهم بالبغية وهي الجنة و ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة.وجيء في نفي السوء بالجملة الفعلية لأن المعذب يتجدد عذابه وألمه وأما الحزن فإنه المعذب في حزن وغم ثابت ولازم وشأن الأكدار القلبية دوام الإحساس بها[1].

فقه الآيات

دلت الآيات الكريمة على فضل التوبة فحري بنا أن نعلم عنها شيئاً يكون لنا زادا في حياتنا وهذا

حديث عن التوبة

التوبة وصية الله لعباده المؤمنين(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور:٣١)(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ

[1] التحرير: ٥٣/٢٤

يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(التحريم:٨) وهي وصية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: "يَا أَيّهَا النّاسُ تُوبُوا إِلَىَ اللّهِ. فَإِنّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ، إِلَيْهِ مِائَةَ مَرّةٍ" وبابها مفتوح لمن تاب فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللّهُ عَلَيْهِ"[1]. ولا يأس من رحمة الله فالله غفار الذنوب وإن كثرت ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبّهِ عَزّ وَجَلّ قَالَ: "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً. فَقَالَ: اللّهُمّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىَ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنّ لَهُ رَبّا يَغْفِرُ الذّنْبَ، وَيَأْخُذَ بِالذّنْبِ. ثُمّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ: أَيْ رَبّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىَ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْباً. فَعَلِمَ أَنّ لَهُ رَبّا يَغْفِرُ الذّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذّنْبِ. ثُمّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىَ أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً. فَعَلِمَ أَنّ لَهُ رَبّا يَغْفِرُ الذّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذّنْبِ. اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"[2]. بل إن الله تعالى يحب التائب ويفرح به فعَنْ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَدِيثَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وَالْآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا قَالَ أَبُو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ ثُمَّ قَالَ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ

---

[1] الحديثان رواهما مسلم " كتاب الذكر والدعاء ...باب التوبة ١٧/٢٤،٢٥

[2] مسلم: كتاب الذكر والدعاء ...باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت... ١٧/٧٥

نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ[١] .وقد سهل الله لنا التوبة، وتوبة من كان قبلنا كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم.المشهور عند أهل السنة أن الذنوب كلها تغفر بالتوبة، وأنها تغفر لمن شاء الله ولو مات على غير توبة، لكن حقوق الآدميين إذا تاب صاحبها من العود إلى شيء من ذلك تنفعه التوبة من العود، وأما خصوص ما وقع منه فلا بد له من رده لصاحبه أو محاللته منه.بيد أن في سعة فضل الله ما يمكن أن يعرض صاحب الحق عن حقه ولا يعذب العاصي بذلك، وأرباب الأصول من أهل السنة قالوا شرط التوبة حتى تصح ثلاثة أشياء الندم على ما عمل من المخالفات ، وترك الذلة في الحال ، والعزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي والخروج عن ما لزمه من مظالمه فإن أول منزلة من التوبة إرضاء الخصوم بما أمكن فإن اتسع ذات يده لإيصال حقوقهم إليهم أو سمحت أنفسهم بإحلاله والبراءة عنه و إلا فالعزم بقلبه على أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان والرجوع إلى الله بصدق الابتهال والدعاء لهم. قال أبو علي الدقاق: التوبة ثلاثة أقسام أولها التوبة وأوسطها الإنابة وأخرها الأوبة .

وقال أبو نصر السراج: سُئل سهل بن عبد الله عن التوبة فقال: أن لا تنسى ذنبك وسئل الجنيد : عن التوبة فقال: أن تنسى ذنبك.قال أبو نصر السراج: أشار سهل إلى أحوال المريدين والمتعرضين تارة لهم وتارة عليهم؛فأما الجنيد فإنه أشار إلى توبة المحققين لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم من

[١] البخاري :كتاب الدعوات باب التوبة ١٠٥/١١

عظمة الله ودوام ذكره.قال وهو مثل ما سئل رُويم عن التوبة فقال:التوبة من التوبة. وقال ابن عطاء : التوبة توبتان توبة الإنابة وتوبة الاستجابة فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفا من عقوبته وتوبة الاستجابة أن يتوب حياءً من كرمه .وقال رجل لرابعة:إني قد أكثرت من الذنوب والمعاصي فلو تُبت هل يتوب علي فقالت:لا بل لو تاب عليك لتبت. وعلى التائب أن يكون صادقاً في توبته لا يعود إلى الذنب ولو نشر بالمناشير. قَالَ قَتَادَةُ: (تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا) الصَّادِقَةُ النَّاصِحَةُ. أي لا رجوع إلى المعصية أو الذنب بعدها كي لا يعد كاذبا فيها .بل قال يحي بن معاذ:ذلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها.قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري:لأن الفعل القبيح من العالم أقبح من غيره[1] .

والحاصل أن النطق بالاستغفار وإن خلا عن حل عقد الإصرار من أوائل الدرجات وليس يخلو عن الفائدة أصلاً فلا ينبغي أن يظن أن وجوده كعدمه ذكره بعض الأكابر وقال النووي رضي اللّه عنه: فيه أن الذنوب وإن تكررت مئة مرة بل ألفاً وتاب في كل مرة قبلت توبته أو تاب عن الكل مرة واحدة صحت توبته وفي الأذكار عن الربيع بن خثيم: لا تقل أستغفر اللّه وأتوب إليه فيكون ذنباً وكذباً إن لم تكن تفعل بل قل اللّهم اغفر وتب عليّ قال النووي رضي اللّه عنه: هذا حسن وأما كراهة أستغفر اللّه وتسميته كذباً فلا يوافق عليه لأن معنى أستغفر اللّه أطلب مغفرته وليس كذباً ويكفي في رده خبر أبي داود من قال أستغفر اللّه الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف قال ابن حجر: هذا في لفظ

[1] الرسالة القشيرية صـ ٧٦-٨١ ، مدارج السالكين ١/٢٠٧-٢٣٦ فتح الباري :١١/١٠٤-١٠٩

أستغفر اللّه أما أتوب إليه فهو الذي عنى الربيع أنه كذب وهو كذلك إذا قاله ولم يتب وفي الاستدلال للرد عليه بالخبر نظر لجواز كون المراد ما إذا قالها وفعل شروط التوبة ويحتمل أن الربيع قصد مجموع اللفظين لا خصوص أستغفر اللّه[1]

المعنى العام للآيات

هنيئا لعباد دعاهم ربهم إليه وأرشدهم إلى محبته (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) ومن هم إنهم مسرفون مخطئون لكنهم إن تابوا قبلهم وإن رجعوا أعانهم ولا مكان لليأس من رحمته لأنها قد وسعت كل شيء ألا فليتب من شاء وهذا هو طريق الإنابة والرجوع إلى من خلقه ورباه والاستسلام كلية له وإتباع أحسن ما أنزل الله والاجتهاد في ذلك ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها حتى لا يأتي يوم لا ينفع فيه الندم فقد يقول البعض يا حسرتاه يا ندماه هذا وقتك تعالى فاحضري يا ندمي على تقصيري في حقوق الله تعالى وقد كنت استهزأ بها وعندها يسري العذاب ولما رأت أن الندم والتمني لا يجديان ولا ينفعان أنكر أن يكون الله قد هداها وكذب في ذلك فهذا القرآن قد نطق بالهدى ودعا إلى الهدى ولكنه أراد التشبث ولو بالكذب على من يعلم السر وأخفى .وإذا كانت تلك دعوة من الله للعباد للتوبة والأوبة وهذا تحذير لئلا يقع في ما لامناص منه يوم القيامة يوم الحسرة والندامة ستري وجوههم مسودة علامة على الشقاء ونتيجة العقاب وسوف يكون مصيره إلى جهنم فهي تسع

[1] فيض القدير ٣/٢٧٦، ٢٧٧

الكافرين وتكون مأواهم أما الذين تابوا وأنابوا واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم فسينجيهم الله بفوزهم و فلاحهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون

(اللّـهُ خَـالِقُ كُـلّ شَـيْءٍ وَهُـوَ عَلَـى كُـلّ شَـيْءٍ وَكِيـلٌ(٦٢) لّـهُ مَقَالِيـدُ السّـمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَالّـذِينَ كَفَـرُواْ بِـآيَاتِ اللّـهِ أُوْلَـَئِكَ هُـمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)قُلْ أَفَغَيْرَ اللّهِ تَأْمُرُونّيَ أَعْبُدُ أَيّهَا الْجَاهِلُونَ(٦٤) وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٦٥) بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مّنَ الشّاكِرِينَ(٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧))

اللغة:-

المقاليد: جمع مقليد ومقلاد وقيل:لا واحد له من لفظه كأساطير وهى مفاتيح السموات والأرض والرزق والرحمة، وقيل:خزائنها،والإشارة بكلها إلى معنى واحد وهو قدرته تعالى عليها وحفظه لها.قال الجوهرى: الإقليد المفتاح ثم قال والجمع المقاليد والأشهر كونه معرباً فهو جمع أقليد مُعَرَّب أكليد وذكر الشهاب أنه بلغة الروم أقليدس.وقال ابن الجوزي وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي الإقليد المفتاح فارسي معرب.

قال جار الله الزمخشري : التعريب أحالها عربية كما أخرج الاستعمالُ المهملَ كونه مهملا [١].

[١] زاد المسير: ١٩٤/٧ الكشاف: ٤٠٧/٤ النيسابوري٢٤/١٥

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللّهِ تَأْمُرُونِّيَ أَعْبُدُ أَيّهَا الجْاهِلُونَ) : الاستفهام للإنكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر. وغير: مفعول مقدم لأعبد وأعبد معمول لـ (تأمروني) على إضمار أن بدل من غير المصدرية (فلما حُذفت بطل عملها) والأصل أفتأمروني أن أعبد غير الله. وتأمروني اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك.٢- ويجوز أن يكون غير منصوبا بتأمروني وأعبد بدل منه- بدل اشتمال- وأن مضمرة معه أيضا. والتقدير أفغير الله تأمروني عبادته . والمعنى أفتأمروني بعبادة غير الله [1].

أُوْلَئِكَ هُمُ الخَْاسِرُونَ: تعريف الطرفين وضمير الفصل-هو- للحصر باعتبار الكمال لا باعتبار مطلق الخسران فإنه لا يختص بهم

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ: الجملة نائب فاعل أوحي لكن في الكلام حذف والأصل أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ)وإلى الذين من قبلك مثل ذلك وقيل لا حذف.

ولقد: اللام للقسم. ولئن: اللام موطئة للقسم أي والله لقد...

واللامان في (لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ ....وَلَتَكُونَنّ) لام جواب القسم.

بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مّنَ الشّاكِرِينَ: الفاء جزائية في جواب شرط مقدر أي:إن كنت عابدا فاعبد الله.فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضا عنه.أو الفاء زائدة بين المؤكد والمؤكد والاسم الجليل منصوب بفعل محذوف والتقدير الله اعبد فاعبده وقدر الفعل مؤخرا ليفيد الحصر.قال ابن المنير:ومقتضى كلام سيبويه أن الفاء مفرعة على فعل محذوف يقدر بحسب المقام تقديره تنبه فاعبد الله فحذفوا الفعل الأول اختصارا واستنكروا الابتداء بالفاء ومن شأنها

[1] البحر المحيط: ٢١٨/٩ ، الدر المصون٤٣٩/٩، ٤٤٠ ، فتح القدير: ٤٧٤/٤

التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه فقدموا المفعول فصارت الفاء متوسطة لفظا ودالة على المحذوف وأفاد ذلك التقديم الحصر[1].

(وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

الجملة مبتدأ وخبر في محل نصب حال من اسم الجلالة؛أي ما عظموه حق تعظيمه والحال أنه موصوف بهذه القدرة العظيمة .

(وَالأَرْضُ): مبتدأ ،(قَبْضَتُهُ): خبر ،وجَمِيعاً حال من الأرض والتقدير إذا كانت مجتمعة قبضته.قبضته:المرة الواحدة من القبض وتطلق على المقدار المقبوض والقبضة تدل على تمام التمكن من المقبوض وأن المقبوض لا تصرف له ولا تحرك فالقبضة مستعارة للتناول استعارة تصريحية[2].

(وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ: السَّمَوَاتُ):مبتدأ و(مَطْوِيَّاتٌ):الخبر وبيمينه متعلق بمطويات.(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ): ما تحتمل المصدرية و الموصولية.

القراءات:-

قرأ الجمهور (تأمرونّ) بالتشديد بإدغام نون الرفع في نون الوقاية. وقرأ نافع تأمروني بنون خفيفة وفتح الياء وقرأ ابن عامر تأمرونني بنونين على الأصل[3].

تأملات في الآيات البينات:-

(اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) من الأشياء الموجودة في الدنيا والآخرة كائنا ما كان من خير وشر وإيمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما ففي الآية رد على المعتزلة.(وَهُوَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) يتولى التصرف فيه

---

[1] الكشاف وعليه الانتصاف: ٤٠٧/٣ ، ٤٠٨ الدر المصون ٤٤٢/٩الشهاب٢٢٣/٨ التحرير ٥٩/٢٤

[2] التحرير ٦٢/٢٤

[3] حجة القراءات ص ٦٢٥

كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة وكأن ذكر ذلك للدلالة على أنه سبحانه الغني وإن المنافع راجعة إلى العباد أو أنه تعالى حفيظ على كل شيء،فالله تعالى يتولى حفظ كل شيء بعد خلقه، فالأشياء محتاجة إليه تعالى في بقائها كما أنها محتاجة إليه عز وجل في وجودها[1] (لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)قال ابن عباس: مفاتيحها[2]. قيل مجاز عن كونه مالك أمره ومتصرفا فيه بعلاقة اللزوم ويكنى به عن معنى القدرة والحفظ،لا يملك أمر السماوات والأرض ولا يتمكن من التصرف فيها غيره عز وجل.أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير:هو تعالى يتولى حفظ كل شيء لأنه لا قدرة لأحد عليه غيره تعالى.

هذا وقد رويت أحاديث في بيان معنى المقاليد أن «تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله ولا قوة إلا بالله،....

قال ابن كثير عن أحدها وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريباً جداً وفي صحته نظر وذكر رواية لأبي يعلى فقال وهو غريب وفيه نكارة شديدة[3].وقيل في حديث روى عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما إنه ضعيف في سنده من لا تصلح روايته والآثار الأخر ضعيفة كذلك والمعنى عليها أن لله تعالى هذه الكلمات يوحد بها سبحانه ويمجد وهي مفاتيح خير السماوات والأرض.

---

[1] الألوسي : ٢١/٢٤

[2] ابن أبي حاتم :٣٢٥٥/١٠

[3] ابن كثير:٦١/٤

(وَالّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) معطوف على قوله تعالى (اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ) أي أنه عز شأنه متصف بهذه الصفات الجليلة الشأن والـذين كفـروا وجحـدوا ذلـك ولم يؤمنـوا بـدلائل الوحدانيـة و لم يهتـدوا بهـا أولئك هـم الكـاملون في الخسران.ولم يقل ويهلك الذين كفروا بخسرانهم كما قال سبحانه وينجي الخ فوز المؤمنين فضله تعالى فلذا جعل نجاتهم مسندة له تعـالى حادثـة لـه يـوم القيامـة غـير ثابتـة قبـل ذلـك بالاسـتحقاق والأعمـال؛ بخلاف هلاك الكفرة فإنهم قدموه لأنفسهم بما اتصفوا به من الكفر والضلال وهـذا الخسـران لأنهـم كفـروا بمـن بيـده مقاليـد السـموات والأرض فحرمـوا مـن خيره وانقطع عنهم فضله.ولم يسند له تعالى ولم يعبر عنه بالمضارع أيضا وفي ذلك تصريح بالوعد وتعريض بالوعيد حيث قيل الخاسرون ولم يقل الهالكون أو المعـذبون أو نحـوه[1] .(قُـلْ أَفَغَيْـرَ اللّـهِ تَـأْمُرُونّيَ أَعْبُـدُ أَيّهَـا الْجَـاهِلُونَ) أبعـد الآيات الداعية لعبادته تعالى وحده غير الله أعبد فقد قالوا له صلى الله تعالى عليـه وسـلم استلم[2] بعـض آلهتنـا ونـؤمن بإلهـك لفـرط غبـاوتهم ولـذا نـودوا بعنوان الجهل،وليجمع لهم بين نقص الدنيا ونقص الآخرة وكأن جهلهم صار لهـم سـجية حيـث حـذف مفعـول الجـاهلون ونـزل منزلـة الـلازم[3] .(وَلَقَـدْ أُوْحِـيَ إِلَيْـكَ وَإِلَى الّـذِينَ مِـن قَبْلِـكَ) مـن الرسـل علـيهم السـلام (لَئِنْ أَشْرَكْتَ بـالله تعالى شيئا ما لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)إفراد الخطاب باعتبار كل واحد منه صلى الله تعالى عليه وسلم والمرسلين الموحى إليهم فإنه أوحي

[1] الرازي :١٣-٤٦٩-٤٧٠

[2] أي قبّل أمر من الاستلام ،وهو التقبيل لليد التي تمسه أو تسير له .* الشهاب ٢٢٢/٨

[3] التحرير ٥٧/٢٤

لكل (لَئِنْ أَشْرَكْتَ) بالإفراد.وهو كلام على سبيل الفرض لتهييج المخاطب المعصوم وإقناط الكفرة وبيان شناعة الإشراك وقبحه وكونه بحيث يُنهى عنه من لا يكاد يباشره فكيف بمن عداه؟ فالغرض تحذير أمته وتصوير فظاعة الكفر،وهذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك ووجه إيراده على هذا الوجه التحذير والإنذار للعباد من الشرك لأنه إذا كان موجبا لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى قيل وفى الكلام تقديم وتأخير والتقدير (وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ) وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك.

واستدلال صاحب المواقف بالآية على جواز صدور الكبائر من الأنبياء عليهم السلام لا وجه له[١].

وفي عدم تقييد الإحباط بالاستمرار على الإشراك إلى الموت دليل للحنفية الذاهبين إلى أن الردة تحبط الأعمال التي قبلها مطلقا وإن قالوا لا يقضى منها بعد الرجوع إلى الإسلام إلا الحج ومذهب الشافعي أن الردة لا تحبط العمل السابق عليها ما لم يستمر المرتد على الكفر إلى الموت وترك التقييد هنا اعتمادا على التصريح به في قوله تعالى (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:٢١٧)ويكون ذلك من حمل المطلق على المقيد.والمراد بالخسران إحباط العمل،وقيل:الخلود في النار(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ)رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم وعبادة الله سبحانه مع الشرك كلا عبادة

---

[١] الشهاب :٢٢٢/٨ فتح القدير ٤٧٤/٤

والله جل وعلا أغنى الشركاء فمن أشرك في عمله أحدا معه عز وجل فعمله لمن أشرك(وَكُن مّنَ الشّاكِرِينَ)إنعامه تعالى عليك فقد جعلك إماما للمتقين وأفضل الأنبياء والمرسلين. وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ)ما عظموه جل جلاله حق عظمته،ولا وصفوه بصفاته الجليلة بل أشركوا معه غيره،فعبدوا غيره تعالى وطلبوا من نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم عبادة غيره سبحانه.أو ما قدروا في أنفسهم وما تصوروا عظمة الله حق التصور فلم يعظموه كما هو حقه عز وجل حيث وصفوه بما لا يليق له من الشرك ونحوه هو متعلق بما قبله من حيث أن فيه تجهليهم في الإشراك ودعائهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إليه[1].

قال القفّال :كقول القائل وما قدرتني حق قدري ،وأنا الذي فعلت كذا وكذا،أي لما عرفت أن حالي وصفتي هذا الذي ذكرت،فوجب أن لا تَحُطَّني عن قدري ومنزلتي[2].وضمير الجمع لكفار قريش كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقيل الضمير لليهود تكلموا في صفات الله تعالى وجلاله فألحدوا وجسموا وجاءوا بكل تخليط.(وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) تمثيل لحال عظمته تعالى ونفاذ قدرته عز

---

[1] وهذا الخلق العظيم ناطق بعظمة خالقه وما هذه الأرض بجوار هذا الخلق ؟!. فقد قال الفلكيون الاستراليون أن النجوم التي يمكن رؤيتها أكثر عشر مرات من عدد حبات الرمال الموجودة في شواطيء وصحاري الأرض. حيث استخدم الفلكيون الاستراليون عددا من أحدث الأجهزة الفلكية في العالم لقياس مدى بريق المجرات في أحد أجزاء الكون، وقياس عدد النجوم الموجودة بذلك الجزء. وحسب ذلك التصور، الذي قدمه العلماء خلال مؤتمر الاتحاد الفلكي الدولي في سيدني باستراليا، يبلغ عدد النجوم ٧٠ (سكستيليون) أو سبعة وإلى يمينها ٢٢ صفرا. وهذا لا يشمل سوى النجوم التي يمكن رؤيتها بالمناظير الفلكية فقط. ويقول دكتور سايمون درايفر من الجامعة الوطنية الاسترالية أن الرقم الاجمالي الفعلي يمكن أن يكون أكبر بكثير جدا جدا، وفي الحقيقة يمكن أن يكون الرقم لا نهائيا. ذكرت هذا النبأ هيئة الإذاعة البريطانية ، وفي موقعها على شبكة الإنترنت) (BBC Arabic,com)

[2] الرازي :٤٧٢/١٣

وجل ،وبيان حقارة الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان إلى الوقوف على حقيقتها، فتلك المخلوقات هينة عليه هوانا لا يوصل السامع إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة.فالغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أوجهة مجاز.فالأرض كلها مع عظمها وكثافتها في مقدوره كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون هو في يد فلان وفى قبضته للشيء الذي يهون عليه التصرف فيه وإن لم يقبض عليه وفي ذلك التنبيه على مزيد جلالته عز وجل وعظمته سبحانه بإفادة أن الأرض جميعا تحت ملكه تعالى يوم القيامة فلا يتصرف فيها غيره تعالى كما قال سبحانه (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لله)[1].وقدم الأرض لمباشرتهم لها ومعرفتهم بحقيقتها ولما كان في دار الدنيا من يدعي الملك والقهر والعظمة والقدرة دون الآخرة فالأمر فيها لله وحده ظاهرا وباطنا قال(يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2]. و عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة [3].(وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) كما قال سبحانه(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) بقدرته التي لا يعجزها شيء،وفيه رمز إلى ما يشركونه معه عز وجل أرضيا كان أم سماويا مقهور تحت سلطانه جل شأنه وعز سلطانه؛فالقبضة مجاز عن الملك أو التصرف كما يقال بلد كذا في قبضة

[1] الكشاف: ٣/ ٤٠٨ ،٤٠٩ الوسيط: ٣/٥٩٣

[2] حاشية الجمل: ٦٠٨/٣ السراج المنير ٤٦٠/٣

[3] مسلم باب نزل أهل الجنة ١٣٤/١٧

فلان واليمين مجاز عن القدرة التامة . والكلام تنبيه على مزيد جلالته تعالى وعظمته سبحانه و ليعلم أن آلهتهم أرضية أم سماوية مقهورة تحت سلطانه عز وجل وننزه الله تعالى عن الأعضاء والجوارح ونؤمن بما نسبه إلى ذاته بالمعنى الذي أراده سبحانه وقد جَاءَ حَبْرٌ إِلَىَ النّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمّدُ أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنّ اللّهَ تَعَالَىَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىَ إِصْبَعٍ. وَالأَرَضِينَ عَلىَ إِصْبَعٍ. وَالْجِبَالَ وَالشّجَرَ عَلَىَ إِصْبَعٍ. وَالْمَاءَ وَالثّرَىَ عَلَىَ إِصْبَعٍ. وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىَ إِصْبَعٍ. ثُمّ يَهُزّهُنّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ تَعَجّباً مِمّا قَالَ الْحَبْرُ. تَصْدِيقاً لَهُ. ثُمّ قَرَأَ: {وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسّمَاوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىَ عَمّا يُشْرِكُونَ}[١] و قيل الأصابع تأول بالاقتدار وعدم الكلفة مثل قول القائل:أقتل زيدا بإصبعي .

ومن باب الإعانة على التمثيل وتخييل العظمة فعله عليه الصلاة والسلام حين قرأ هذه الآية فقد أخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول هكذا بيده ويحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب نفسه أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم فرجف برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ المنبر حتى قلنا ليخرن به[٢]

---

[1] البخاري: كتاب التفسير باب وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ ٨ /١٢٩

[٢] مسلم : كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار. ١٣٢/١٧

قال الإمام النووي: قال العلماء: المراد بقوله يقبض أصابعه ويبسطها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ولهذا قال: إن ابن مقسم نظر إلى ابن عمر كيف يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

وأما إطلاق اليدين لله تعالى فمتأول على القدرة وكني عن ذلك باليدين لأن أفعالنا باليدين فخوطبنا بما نفهمه ليكون أوضح وأوكد في النفوس، وذكر اليمين والشمال حتى يتم المثال لأننا نتناول باليمين ما نكرمه وبالشمال ما دونه، ولأن اليمين في حقنا يقوي لما لا يقوي له الشمال، ومعلوم أن السموات أعظم من الأرض فأضافها إلى اليمين والأرضين إلى الشمال ليظهر التقريب في الاستعارة، وإن كان الله سبحانه وتعالى لا يوصف بأن شيئا أخف عليه من شيء ولا أثقل من شيء، هذا مختصر كلام المازري في هذا... وعن المازري أيضا أن إطلاق اليدين لله تعالى متأول على القدرة وكني عن ذلك باليدين لأن أفعالنا تقع باليدين فخوطبنا بما نفهمه ليكون أوضح وأوكد في النفوس وذكر اليمين والشمال حتى يتم التأويل لأنا نتناول باليمين ما نكرمه وبالشمال ما دونه ولأن اليمين في حقنا تقوي لما تقوى له الشمال ومعلوم أن السماوات أعظم من الأرض فأضافها إلى اليمين وأضاف الأرضين إلى الشمال ليظهر التقريب في الاستعارة وإن كان الله سبحانه وتعالى لا يوصف بأن شيئا أخف عليه من شيء ولا أثقل من شيء قال النووي نقلا عن القاضي عياض والله أعلم بمراد نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فيما ورد في هذه الأحاديث من مشكل: ونحن نؤمن بالله تعالى وصفاته ولا نشبه شيئا به ولا نشبهه بشيء ليس كمثله شيء وهو السميع

[1] مسلم : كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار. ١٣٢/١٧

البصير، وما قاله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وثبت عنه فهو حق وصدق، فما أدركنا علمه فبفضل الله تعالى وما خفي علينا آمنا به وكِلنا علمه إليه سبحانه وتعالى، وحملنا لفظه على ما احتمل في لسان العرب الذي خوطبنا به ولم نقطع على أحد معنييه بعد تنزيهه سبحانه عن ظاهره الذي لا يليق به سبحانه وتعالى وبالله التوفيق[١]. وأخرج البيهقي عن سفيان بن عيينة رضي الله عنه قال: كل ما وصف الله من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه[٢].

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) ما أبعد مَنْ هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم أو عما يشركونه من الشركاء فسبحان للتعجب .

المعنى العام للآيات

(اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) من أكبر مجرة إلى أصغر ذرة كل في قبضته والجميع تحت سلطانه وهو على شيء وكيل له الأمر النافذ مالك كل شيء فله مقاليد السماوات والأرض هذا الكون العظيم يسير بأمره مسخر بقدرته فمن طلب العزة من غيره ذل ومن اهتدى بغير هداه ضل ومن استعان بغيره كلّ والذين كفروا بآيات الله أولئك الخاسرون خسروا الدنيا والآخرة ضل سعيهم وحق خسرانهم ووجب عذابهم،ومع وضوح تلك العظمة وظهور تلك الآيات الدالة على كمال وحدانيته يدعون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إلى عبادة غير

---

[١] النووي على مسلم ١٣٢/١٧-

[٢] الدر المنثور ٢٤٨/٧ دار الفكر بيروت

الله تعالى فمن جهلهم أتوا بتلك الجهالة،أتأمروني أن أعبد غير المستحق للعبادة سبحانه وتعالى ويُعرِّض بهم ربهم أنه أحبط أعمالهم وأبطل عبادتهم ففرض شرطا مستحيلا على رسله المعصومين بأن أوحى إليهم لئن أشرك أي واحد منهم سيحبط عمله هذا حال أهل العصمة فما بال أهل الجهالة هؤلاء أهل التقوى فما حال أهل الغواية الكلام موجه لمن كان له عقل أو قلب سليم اترك هؤلاء وشأنهم وعليك بالمحجة البيضاء والطريق السوي المستقيم بل الله وحده المستحق للعبادة فاعبده وحده وأخلص له الدين وكن من الشاكرين لحفظه وعونه وهديه ... عظِّم الله بالإخلاص في عبادته بالإكثار من شكر نعمه ...أما هم فما عظموا الله حق عظمته و تلك المخلوقات تنادي بعظمته فالأرض كلها قبضته يوم القيامة والسماوات العظيمة مطويات بيمينه و لا يحيط أحد بذلك الوصف سبحانه وتعالى عما يشركون .

حصاد العمر

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ (٧٢)وَسِيقَ الَذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ (٧٥))

اللغة:-

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ): التعبير بالماضي لتحقق الوقوع .

(أُخْرَى):تحتمل النصب على أنها صفة مصدر محذوف أي نفخ فيه نفخة أُخْرَى،ونائب الفاعل الجار والمجرور.وتحتمل الرفع على أنها صفة لنائب الفاعل.

(فَصَعِقَ): صعق الرجل إذا غشي عليه من هدة أو صوت شديد يسمعه وصعق إذا مات[١] .

(يَنظُرُونَ):حال.

(وَوُضِعَ الكِتَابُ): التعريف للجنس أو الاستغراق.

الزمر: جمع زمرة وهي الجماعة القليلة ومنه شاة زمرة قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة.وفي الأساس جاءوا زمرا:جماعات في تفرقة بعضها في إثر بعض،وقال بعضهم اشتقاق الزمرة من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه[٢] .

(فَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ)المخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفا أي (فَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ) جهنم.

(حَتَّى): هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية إلا أن جزاءها محذوف[٣] .

[١] أساس البلاغة للزمخشري مادة صعق صـ٥٣١

[٢] المفردات:كتاب الزاي صـ٢١٥ والأساس مادة زمر صـ٤٠٧ اللسان ٣٢٧/٤

[٣] الكشاف:٤١٠/٣

(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)جواب إذا محذوف قال المبرد تقديره سعدوا وفتحت وقال الزجاج:الجواب محذوف على تقدير حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأشياء التي ذكرت دخلوها فالجواب دخولها.

(وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) الواو للحال والجملة حالية بتقدير قد على المشهور أي جاءوها وقد فتحت أبوابها.

(فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ)المخصوص بالمدح محذوف أي فنعم أجر العاملين الجنة.

حافين: حال و(يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) حال ثانية.والباء في بحمده للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده.

تأملات في الآيات البينات:-

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) قال ابن حجر: اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه الصلاة والسلام ونقل فيه الحليمي الإجماع فلعله ميز على الآخر فلذلك أفرد بالذكر فقد روى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري مرفوعا أن النافخ اثنان [1]وعن ابن عمر أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: "النافخان في السماء الثانية رأس أحدهما بالمشرق ورجلاه بالمغرب ينتظران متى يؤمران أن ينفخا في الصور فينفخا" قال ابن حجر رجاله ثقات[2].

والصور قرن عظيم فيه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ونفس منفوسة ونحن نؤمن به ونفوض كيفيته إلى علام الغيوب جل شأنه.

---

[1] ابن ماجه: وقال البوصيري في الزوائد:إسناده ضعيف لضعف حجاج بن أرطأة و عطية العوفي (١٤٢٨/٢).

[2] أحمد : ١٩٢/٢ الفتح: ٣٧٦،٣٧٧/١١ ، مجمع الزوائد:٣٣٠/١٠

(فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ)ماتوا بسبب ذلك ويحتمل أنهم يغشى عليهم أولا ثم يموتون.

وفي صحيح مسلم (... ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق الناس[1].

إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ :قيل:جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت عليهم السلام وقيل:هم وحملة العرش فإنهم يموتون بعد وقيل:رضوان والحور ومالك والزبانية،وقيل:من مات قبل ذلك أي يموت من في السموات والأرض إلا من سبق موته لأنهم كانوا قد ماتوا،وقيل: موسى عليه السلام رواه ابن المنذر عن جابر[2]، عن أَبِي هُرَيْرَةَ؛...فَقَالَ لَا تُخَيِّرُونِي عَلَىمُوسَى فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَثْنَى اللَّهُ)[3].

وقيل إنه:م يرد في التعيين خبر صحيح،قال القرطبي:قال شيخنا أبوالعباس: والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمل وقال قتادة: إنه استثنى وما يبقى أحد إلا قد مات وقد استثنى الله والله أعلم بثنياه[4].ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ)في الصور وهو ظاهر في أنه ليس بجمع وإلا لقيل فيها أخرى (فِيهِ أُخْرَى)نفخة أخرىنفخة البعث وهو يدل على أن المراد بالأولى)و(نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ)(الحاقة:١٣)كما صرح به في آيات أخر. و عن أبي هريرة مرفوعا أن الله تعالى ينزل بين النفختين ماء من السماء فتنبت منه

---

[1] مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض، ونزول عيسى وقتله إياه٧٦/١٧

[2] شعب الإيمان للبيهقي من غير إسناد ٣١٠/١ ،الدر المنثور ٢٥١/٧ وذكر روايات متعددة في تعيين المستثنى .

[3] البخاري كتاب الأنبياء باب وفاة موسى ...وأمّا معنى باطش : متعلق بقوة . الفتح ٥٠٨/٦

[4] تفسير عبد الرزاق :١٧٥/٣، ابن أبي حاتم ٣٢٥٦/١٠ الدر المنثور ٢٥١/٧ التذكرة ١٩٧/١ ،١٩٨

أجساد الناس وإن بين النفختين أربعين[1].ولم يبين فيه ما هذه الأربعون.(فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ)من قبورهم(يَنظُرُونَ)ينتظرونما يقال لهم ما يؤمرون به أو ينتظرون ماذا يفعل بهم وقيل:يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم، أومن القيام مقابل الحركة أي فإذا هم متوقفون خامدون في أمكنتهم لتحيرهم.وذكر العلامة الألوسي تعقيبات على بعض تلك الأقوال[2]، فلعل فجأتهم تختلف من قوم لقوم ومن وقت لوقت فالكرب عظيم والهول شديد.

ونفخة الصعق هي النفخة الأولى التي يموت بها من بقي على وجه الأرض.قال القرطبي:وإنما هما نفختان. وكذا قال ابن حجر: بل هما نفختان فقط، ووقع التغاير في كل واحدة منهما باعتبار من يستمعهما، فالأولى: يموت بها كل من كان حيا ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله،والثانية: يعيش بها من مات ويفيق بها من غشي عليه والله أعلم. فالصحيح أن هما نفختان لا ثلاث ولا أربع كما قيل[3].

(وَأَشْرَقَتِ) أضاءت وعظم نورها، الأَرْضُ أرض المحشر وهي الأرض المبدلة كما قال تعالى(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ).

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(يُحْشَرُ النّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىَ أَرْضٍ بَيْضَاءَ، عَفْرَاءَ،كَقُرْصَةِ النّقِيّ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ

[1] البخاري:كتاب التفسير باب ونفخ في الصور... ٤١٤/٨ مسلم باب ما بين النفختين ٩١/١٧

[2] البحر :٢٢٢/٩ الألوسي ٢٨/٢٤

[3] تفسير القرطبي : ٢٧٩/١٥، التذكرة له ٢١٢٠٨/١-٢١٦ فتح الباري ٥١٤/٦

لأحد)[1].(بِنُورِ رَبِّهَا)نور يخلقه الله تعالى بلا واسطة أجسام مضيئة كشمس وقمر والإضافة من باب (ناقة الله).وعن الحسن والسدي تفسيره بالعدل،أي وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه سبحانه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات واختار هذا الزمخشري وصُححت تلك الاستعارة بتكررها في القرآن العظيم وإضافته إلى اسمه تعالى لأنه عز وجل هو الحق العدل إشارة إلى الصارف إلى التأويل و بإضافة اسمه تعالى الرب إلى الأرض لأن العدل هو الذي يتزين به الأرض لا البرهان و بما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق لأنه تفصيل العدل بالحقيقة وبالعرف العام فإن الناس يقولون للملك العادل أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك ولقوله صلى الله عليه وسلم(الظلم ظلمات يوم القيامة)[2]. فإنه يقتضي أن يكون العدل نورا فيه[3].إضافة الملابسة مجاز والترجيح لما اختاره جار الله لما ذكر من الفوائد .وورجح الألوسي أن قوله سبحانه وأشرقت الأرض بنور ربها إشارة إلى تجليه عز وجل لفصل القضاء فقال وقد يعبر عنه بالإتيان وقد صرح به في قوله تعالى(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ البقرة:٢١٠) أو هو نور آخر يظهر عند ذلك التجلي و الأمر فوق ما تنتهي إليه العقول ويوميء إلى أن ذلك التجلي مقرون بالعدل التعبير بعنوان الربوبية

[1] البخاري: كتاب الرقاق باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة٣٧٩/١١.و مسلم كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار. باب في البعث والنشور، وصفة الأَرض يوم القيامة ١٣٤/١٧ العفراء بالعين المهملة والمد بيضاء إلى حمرة والنقي بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء هو الدقيق الجيد وهي الأرض الجيدة، قال القاضي: كأن النار غيرت بياض وجه الأرض إلى الحمرة. "ليس فيها علم لأحد" هو بفتح العين واللام أي ليس بها علامة سكنى أو بناء ولا أثر *النووي ١٣٤/١٧

[2] البخاري : كتاب المظالم باب الظلم ظلمات يوم القيامة ١٢٠/٥

[3] الكشاف:٤١٠/٣ والرازي ٤٨/١٣

مضافا إلى ضمير الأرض والله أعلم بمراده[1]. قال السمرقندي وقال بعضهم:هذا من المكتوم الذي لا يفسر[2].

ولعل تفويض الأمر أسلم كما مر عن القاضي عياض و الإمام النووي آنفا عند الحديث عن قبض الأرض.

(وَوُضِعَ الكِتَابُ) قال السدي:الحساب[3].فالكتاب مجاز عن الحساب وما يترتب عليه من الجزاء،والمراد بوضعه الشروع فيه.وقيل الكتاب:صحائف الأعمال عرضت على أهلها،(وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ) ليسئلوا هل بلغوا أممهم وقيل:ليحضروا حسابهم (وَالشُّهَدَاءِ)قال عطاء: الحفظة ولعله كما قال سبحانه(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ق:٢١)وقيل:الشهداء أمة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) وقيل:جمع الشهداء من الملائكة وأمة محمد عليه الصلاة والسلام والجوارح والمكان،فالشهداء جمع شاهد وقال قتادة:هم المستشهدون في سبيل الله تعالى[4]، فهو جمع شهيد وذلك تنويها بشأنهم، وترفيعاً لقدرهم،بضمهم إلى النبيين وفيه إشارة إلى أن النبيين والشهداء.إذا دعوا للقضاء والحكومة والمحاسبة فكيف يكون حال الأمم وأهل المعاصي والذنوب[5] (وَقُضِيَ بَيْنَهُم)بين العباد (بِالْحَقِّ) بالعدل(وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)بنقص ثواب أو زيادة عقاب (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّاعَمِلَتْ) أعطيت جزاء ذلك

---

[1] روح المعاني:٣٠/٢٤

[2] بحر العلوم: ١٥٧/٣ تحقيق محمد معوض و آخرين العلمية بيروت

[3] الطبري:٢٢/٢٤

[4] الطبري:٢٣/٢٤

[5] روح البيان :١٤٠/٨ ، محاسن التأويل٥١٥١/١٤

كاملا (وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)لا يحتاج إلى كاتب ولا حاسب ولا شاهد فلا يفوته سبحانه شيء من أعمالهم، وإنما وضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء لتكميل الحجة وقطع المعذرة.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً)تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها والسوق يقتضي الحث على المسير بعنف وإزعاج وهو الغالب ويشعر بالإهانة وهو المراد هنا أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجا متفرقة بعضها في أثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة. فإن قيل: السوق في أهل النار معقول لأنهم لما أمروا بالذهاب إلى موضع العذاب لابد وأن يساقوا إليه وأما أهل الثواب فإذا أمروا بالذهاب إلى موضع السعادة والراحة فأي حاجة إلى سوقهم أجيب بأن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين وحثها إسراعا إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين هذا سوق تشريف وإكرام وذاك سوق إهانة وانتقام وهذا من بدائع أنواع البديع وهو أن يأتي سبحانه وتعالى بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم وعقابهم ويأتي بتلك الكلمة بعينها وهيئتها في حق المؤمنين فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم فسبحان من أنزله معجز المباني متمكن المعاني عذب الموارد والمثاني[1] (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) وكانت قبل مجيئهم غير مفتوحة فهي كسائر أبواب السجون لا تزال مغلقة حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها فتفتح ليدخلوها فإذا

[1] السراج المنير: ٤٦٤/٤ الرازي:٤٨٤/١٣ ،حاشية الجمل ٦١٣/٣

دخلوها أغلقت عليهم[١].وقال ابن عطية والكلام هنا يقضي أن فتحتها إنما يكون بعد مجيئهم وفي وقوفهم قبل فتحها مذلة لهم ، وهكذا هي حال السجون ومواضع العذاب بخلاف قوله في أهل الجنة وفتحت بالواو مؤذنة بأنهم يجدونها مفتوحة كمنازل الأفراح[٢].

(وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) على سبيل التقريع والتوبيخ (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)من أنفسكم تفهمون ما يخبرونكم به ويسهل عليكم مراجعتهم.(يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ)التي فيها سبب نجاتكم من العذاب وفيها آيات التبشير و الإنذار والوعد والوعيد ... (وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) أي وقتكم هذا وهو وقت دخولكم النار لأن المنذر به الحقيقة العذاب ووقته وجوز أن يراد به يوم القيامة والآخرة لاشتماله على هذا الوقت،أو ما يختص بهم من عذابه وأهواله[٣].

واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل الشرع لأن سبب توبيخهم كفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وإنذارهم ولو كان الكفر معلوما بالعقل دون الشرع لقيل ألم تعلموا بما أودع الله تعالى فيكم من العقل قبح كفركم (قَالُوا بَلَى) قد أتانا رسل منا تلوا علينا آيات ربنا وأنذرونا لقاء يومنا هذا(وَلَكِنْ حَقَّتْ) وجبت (كَلِمَةُ العَذَابِ)كلمة الله تعالى المقتضية له (عَلَى الكَافِرِينَ) والمراد بها الحكم عليهم بالشقاوة وأنهم من أهل النار لسوء اختيارهم أو قوله تعالى لإبليس (لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)(ص:٨٥) ووضع

---

[١] البحر :٢٢٤/٩

[٢] المحرر الوجيز:٥٤٢/٤

[٣] الشهاب :٢٢٨/٨

الكافرين من وضع الظاهر موضع المضمر إشارة للوصف الموجب لعذابهم وهو الكفر وكلامهم اعتراف لا اعتذار (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ) أي مقدرا خلودكم فيها والقائل يحتمل أن يكون الخزنة وترك ذكرهم للعلم به مما قبل ويحتمل أن يكون غيرهم ولم يذكر لأن المقصود ذكر هذا المقول المهول من غير نظر إلى قائله وأبهم القائل لتهويل المقول ؛حيث إن قائله لعظمته أو كثرته لا يصرح باسمه ومن هو كذلك يكون قوله واقعا لا محالة[1] .(فَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ) والتعبير بالمثوى لمكان (خَالِدِينَ) وفي التعبير بالمتكبرين إيماء إلى أن دخولهم النار لتكبرهم عن قبول الحق والانقياد للرسل المنذرين عليهم الصلاة والسلام وهو في معنى التعليل بالكفر ولا ينافي تعليل ذلك بسبق كلمة العذاب عليهم لأن حكمه تعالى وقضاءه سبحانه عليهم بدخول الناس النار إلا بسبب تكبرهم وكفرهم لسوء اختيارهم المعلوم له سبحانه في الأزل وكذا قوله عز وجل لأملأن فهناك سببان قريب وبعيد والتعليل بأحدهما لا ينافي التعليل بآخر(وَسِيقَ الَذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً) جماعات مرتبة حسب ترتب طبقاتهم في الفضل عن أبي هريرة قال قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل[2] .والسوق هنا الحث على السير للإسراع إلى الإكرام بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة وتعجيلهم إلى العقاب والآلام واختير للمشاكلة وقوله(إِلَى الجَنَّةِ) يدفع إيهام الإهانة وقد يقال إنهم لما أحبوا لقاء

---

[1] الشهاب :٢٢٨/٨

[2] مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها ١٧٢/١٧

الله تعالى أحب الله تعالى لقاءهم فلذا حثوا على دخول دار كرامته جل شأنه. واختار الزمخشري أن المراد بسوقهم سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين[1].وهذا السوق والحث للإسراع بهم إلى دار الكرامة،وتعقب بأنه لا قرينة على إرادة ذلك وكون جميع المتقين لا يذهب بهم إلا راكبين يحتاج إلى دليل.وقال الألوسي:إن حمل الذين اتقوا على المخلصين فالقول بركوبهم قول قوي وإن حمل على الشرك خاصة ليشمل المخلصين فالقول بذلك قول ضعيف إذ منهم من لا يدخل الجنة إلا بعد أن يدخل النار ويعذب فيها وظاهر كثير من الأخبار أن من هذا الصنف من يذهب إلى الجنة مشيا.(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)كقوله تعالى(جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ) (ص:٥٠)ويشعر ذلك بتقدم الفتح كأن خزنة الجنات فتحوا أبوابها ووقفوا منتظرين لهم وهذا كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه وتقف منتظرة له وفي ذلك من الإحترام والإكرام ما فيه، وحذفت الواو في قصة أهل النار؛لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا. وقيل إنها واو الثمانية وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون في العدد خمسة ستة سبعة وثمانية قال الألوسي:وما قيل من أن الواو في الثانية واو الثمانية لأن المفتح ثمانية أبواب ولما كانت أبواب النار سبعة لا ثمانية لم يؤت بها وجه ضعيف لا يعول عليه[2].(وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ)من جميع المكاره والآلام (طِبْتُمْ) قال مجاهد: يعني كنتم طيبين

---

[1] الكشاف:٤١١/٣

[2] الشهاب :٢٢٨/٨ ، الألوسي ٣٤/٢٤

بطاعة الله عز وجل[1].(فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)أي مقدرين الخلود كان ما كان مما يقصر عنه البيان أو فازوا بما لا يعد ولا يحصى من التكريم والتعظيم.واستدل المعتزلة بقوله(طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا) حيث رتب فيه الأمر بالدخول على الطيب والطهارة من دنس المعاصي على أن أحدا لا يدخل الجنة إلا وهو طيب طاهر من المعاصي إما لأنه لم يفعل شيئا منها أو لأنه تاب عما فعل،ورد بأنه وإن دل أن أحدا لا يدخلها إلا وهو طيب لكن قد يحصل ذلك بالتوبة المقبولة أوبالعفو عنه أو الشفاعة له أو بعد تمحيصه بالعذاب.(وقالوا):عطف على قال أو على مقدر أي فدخلوها(وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ) بالبعث والثواب(وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ) يريدون المكان الذي استقروا فيه لأن أرض الآخرة التي يمشي عليها تسمى أرضا حقيقة، قال الفراء :يعني الجنة.

وقال السمرقندي:أي أنزلنا أرض الجنة[2].وإيراثها تمليكها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه بناء على أنه لا ملك في الآخرة لغيره عز وجل وإنما هو إباحة التصرف والتمكين مما ملكه جل شأنه وقيل ورثوها من أهل النار فإن لكل منهم مكانا في الجنة كتب له بشرط الإيمان(وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)يتبوأ كل منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة لا أن كلا منهم يتبوأ في أي مكان من مطلق الجنة أو من جنات غيره المعينة لذلك الغير. لأنه لا يشاء غير مكانه لسلامة نفسه وعصمة الله تعالى له عن تلك المشيئة.(فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ)من كلام الداخلين عند الأكثر والمخصوص بال (فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ) ولعل التعبير

---

[1] تفسير مجاهد :٥٦١/٢

[2] معاني القرآن للفراء: ٢/ ٤٢٧ ، بحر العلوم: ١٥٩/٣

بأجر العاملين دون أجرنا للتعريض بأهل النار أنهم غير عاملين وقال مقاتل هو من كلام الله تعالى .(وَتَرَى المِلائِكَةَ حَافِّينَ) أطافوا محدقين جمع حاف.والخطاب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويجوز أن يكون لكل من تصح منه الرؤية كأنه قيل (وَتَرَى) أيها الرائي(وَتَرَى المِلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ)أي حول العرش على أن من مزيدة وهو الأظهر وقيل هي للإبتداء فحول العرش مبتدأ الحفوف وكأن الحفوف حينئذ للخلق.(يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)ينزهونه تعالى عما لا يليق به يذكرون الله تعالى بوصفي جلاله وإكرامه تبارك وتعالى وهذا الذكر إما من باب التلذذ فإن ذكر المحبوب من أعظم لذائذ المحب أو من باب الامتثال ويدعى أنهم مكلفون ولا يسلم أنهم خارجون عن خطة التكليف أو يخرجون عنها يوم القيامة نعم لا يرون ذلك كلفة وإن أمروا به وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) بين العباد كلهم بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار فإن القضاء المعروف يكون بينهم(وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ)أي على ما قضي بيننا بالحق والقائل هم المؤمنون المقضي لهم، وحمدهم الأول على إنجاز وعده سبحانه وإيراثهم الأرض يتبوؤن من الجنة حيث شاؤا وحمدهم هذا على القضاء بالحق بينهم فلا تكرار وخص :قيل دون قالوا لتعينهم وتعظيمهم.وقيل إنهم يحمدونه إظهارا للرضا والتسليم، كما أنهم حمدوه لآنه رب العالمين.وقال ابن عطية:هذا الحمد ختم للأمر وقول جزم عند فصل القضاء أي أن هذا الحاكم العدل ينبغي أن يحمد عند نفوذ حكمه وإكمال قضائه ومن هذه الآية جعلت(الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ لعَالَمِينَ)خاتمة المجالس في العلم.وقال قتادة:فتح الله أول الخلق بالحمد فقال(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١))(الأنعام) وختم بالحمد في آخر الأمر وهو استقرار الفريقين في منازلهم فنبه بذلك على تحميده في بداية كل أمر وخاتمته[١].

المعني العام

وأذن الله تعالى لصاحب الصور أن ينفخ فيه فامتثل الأمر ونفخ في الصور نفخة واحدة ففزع بسببها من في السماوات والأرض بل وماتوا أيضا فقد فزعوا وأعقب الفزع الموت إلا من شاء الله تعالى أن يبقيهم ثم نفخ صاحب الصور نفخة أخرى فبعث الله من مات أحياهم حياة حقيقية يقومون وينظرون ويتساءلون ...وهذا البعث لإقامة الحكم العدل(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ)(المؤمنون:١١٥) فأشرقت الأرض بنور ربها فـ(اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) ولإقامة الحجة وضع الكتاب وحضر النبيون والشهداء بيانا لفضلهم وتنويها بشرفهم وقضي بين الجميع بالحق والله هو الحق المبين ولا ظلم اليوم وأخذت كل نفس حقها وجزاء عملها (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراًّ يَرَهُ (٨))

والجزاء من جنس العمل فالذين كفروا يحشرون إلى جهنم وردا يساقون إليها بالإهانة والإذلال جماعات جماعات وإذا وصلوا إليها فاجأهم الذل الأكبر والخزي الدائم فتفتح أبوابها فجأة وليذقوا ما كانوا يعملون ويسألهم خزنة

---

[١] المحرر الوجيز :٥٤٤/٤ السراج المنير :٤٦٥/٣

جهنم سؤال تبكيت وإذلال ما الذي جاء بكم إلى هنا ألم يرسل إليكم من يمنعكم من النار من يأخذ بحجزكم من يشفق عليكم أن تدخلوا هذه النار فيكون الجواب و كأنهم حكماء بلى جاءنا من استهزأنا به ودعانا من سخرنا منه وحقت كلمة العذاب على الكافرين فيقال لهم ادخلوا أبواب جهنم حيث حرها الشديد وقعرها البعيد فهو خير جزاء لكبركم فبئس المقام مقام المتكبرين جهنم والعياذ بالله ، وهناك مشهد آخر موكب المؤمنين المتقين الذين آثروا مولاهم على أنفسهم حفظ الله أنفسهم و أكرمهم فيذهبون إلى الجنة في مشهد تكريم ويركبون المراكب جماعات جماعات فإذا جاءوا وجدوا مشاهد الاحتفال بهم والتكريم لهم فالأبواب مفتحة والملائكة تنتظرهم وتسلم عليهم وتبشرهم بالخلود في هذا النعيم وهنا يحمد المؤمنون ربهم على نعمه العظيمة حيث وفقهم لطاعته وأعانهم على عبادته وأنجز لهم ما وعدهم ومنحهم أرض الجنة يقيمون في الجنة في منازلهم وقصورهم فنعم الأجر أجر العاملين ألا وهو الجنة وترى الملائكة ملتفين حول العرش يسبحون بحمد ربهم وهو خير الكلام وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين .

المراجـــع

* الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ
للإمام محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي مكتة التنبي القاهرة
* **أساس البلاغة**
للإمام محمود عمر الزمخشري. طبعة دارالشعب.
* **الإتقان في علوم القرآن**
للحافظ جلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار التراث
* إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم
للإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت
* **بحر العلوم**
للعلامة أبي الليث السمرقندي تحقيق محمد معوض و آخرين العلمية بيروت
* **البحر المحيط**
محمد بن يوسف الشهر بأبي حيان الأندلسي دار الفكر .
* **البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان**
للإمام برهان الدين أبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني تحقيق السيد الجميلي هدية مجلة الأزهر سنة ١٤١٤هـ
* **البرهان في علوم القرآن**
للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار التـــراث
* **التحرير والتنوير**
للشيخ محمد الطاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤
* **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**

لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي تحقبق أحمد حجازي السقا طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٥ ١٩٨٥

* **الترغيب والترهيب**

للشيخ الإمام الحافظ عيد العظيم بن عبد القوى المنذري المكتبة التوفيقية .

* **تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل.**

للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي تحقيق عبد القادر عرفات العشا دار الفكر بيروت ١٤١٦- ١٩٩٦

* **تفسير القرآن العظيم .**

للإمام أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير طبعة (الحلى)

* **تفسير القرآن**

للحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني تحقيق د/ مصطفى مسلم محمد مكتبة الرشد الرياض الأولى ١٤١٠

* **تفسير النسفي .**

للإمام عبد الله بن أحمد النسفي – طبعة الحلبي .

* **تفسير مجاهد بن جبر**

تحقيق عبد الرحمن الطاهر السورتي الأولى ١٤١٥ المنشورات العلمية بيروت

* **تفسير المنار .**

للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، السيد محمد رشيد رضا الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢

* **التفسير التحليلي لسورة النساء للأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة، الأولى ١٩٩٣ م**

* **تفسير الوسيط**

لأبي الحسن على بن أحمد الواحدي تحقيق مجموعة من العلماء مكتبة الباز مكة المكرمة

* **تقريب التهذيب .**

للحافظ ابن حجر تحقيق محمد عوّامة دار الرشيد سوريا حلب"

* **تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر.**

* **جامع العلوم والحكم**

للحافظ ابن رجب الحنبلي الناشر دار الريان للتراث ١٤٠٧ ، ١٩٨٧

* **الجامع لأحكام القرآن.**

للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي . كتاب الشعب

* **الجرح والتعديل.**

للحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الطبعة الأولى ١٩٥٢ - دار الكتب العلمية بيروت

* **حاشية الأشموني على الصبان**

* **حاشية الجمل على الجلالين ط الحلبي.**

* **حاشية الدسوقي على مغني اللبيب . للعلامة ابن هشام الشيخ محمد عرفة الدسوقي) مطبعة المشهد الحسيني**

* **حاشية الشهاب.على البيضاوي**

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي بيروت

* **حاشيةالصاوي على الجلالين ط الحلبي**

* **حجة القراءات**

للإمام عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة تحقيق سعيد الأفغاني الثانية مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢-١٩٨٢

* **الدر المنثور في التفسير بالمأثور .**

للإمام السيوطي دار الفكر بيروت ١٩٩٣
* **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون .**
للإمام أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي تحقيق د/ أحمد محمد الخراط) دار القلم دمشق ط ١ -١٩٨٦
* **الرسالة القشيرية في علم التصوف**
للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وعليها حواشي من شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري مطبعة محمد على صبيح
* **روح البيان إسماعيل حقي البروسوي دار إحياء التراث العربي بيروت .**
* **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.**
للعلامة شهاب الدين محمود الألوسي المنيرية الطبعة الأولى — سنة ١٩٨٥ .
* **زاد المسير في علم التفسير .**
للإمام عبد الرحمن بن على الجوزي تحقيق محمد السيد الجليند المكتب الإسلامي بيروت .
* **السراج المنير للخطيب الشربيني المعرفة بيروت**
*– **سنن الترمذي**
مع أ–عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي . . . .للإمام ابن العربي المالكي دار الوحي المحمدي القاهرة
ب– تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي . . . للإمام الحافظ أبي العلاء محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩٠
* **سنن أبي داود. . . . . للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني**
دار الريان للتراث سنة ١٩٨٨

* **سنن ابن ماجه. . . . . للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني**

دار الريان للتراث سنة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي

* **سنن النسائي . . . . للإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب**

أ -الصغرى . . . . . بشرح الحافظ السيوطي وحاشية الإمام السندي ار الريان للتراث سنة ١٩٨٧

ب- الكبرى- تحقيق د/ عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن دار الكتب العلمية - بيروت .

* **شرح طيبة النشر في القراءات العشر . . . . للنويري تحقيق عبد الفتاح سليمان أبو سنة ومراجعة محمد مهدي علام وآخرون سلسة مجمع البحوث الإسلامية .**

*شعب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي تحقيق محمد السعسد بسيوني زغلول الأولى ١٤١٠ دار الكتب العلمية بيروت .

* **صحيح البخاري (معه فتح الباري . . .لابن حجر تحقيق محب الدين الخطيب** دار الريان للترات

* **صحيح مسلم بشرح النووي – . ... طبعة الحلبي**

* **غرائب القرآن للإمام نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري مع تفسير الطبري**

* **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير الإمام محمد بن على الشوكاني دار الفكر بيروت**

* **في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب طبعة دار الشروق**

* **قطر الندى وبل الصدى لابن هشام**

* **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . . . .**
للإمام محمود بن عمر الزمخشري وعليه الإنتصاف للإمام المنير السكندري .
* **كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ د يوسف القرضاوي دار الشروق**
* **لسان العرب . . . . .لابن منظور**
* **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**
للإمام محمد بن حبان أبو حاتم البستي تحقيق محمود إبراهيم زايد الطبعة الثانية – سنة ١٤٠٢ – دار الوعي – حلب
* **مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي دارمكتبة الحياة بيروت**
* **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**
للحافظ نور الدين الهيثمي بتحرير الحافظين(العراقي وابن حجر الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٢ دار الكتاب العربي . بيروت.
* **محاسن التأويل**
للإمام جمال الدين القاسمي علق عليه محمد فؤاد عبد الباقي ط الحلبي
* **المُحَرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** للقاضي أبي محمد عبد الحي بن غالب بن عطية الأندلسي تحقيق عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية بيروت١٤١٣ ١٩٩٣،
* **مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح . . . . .**للإمام الخطيب القزويني في علم المعاني والبيان والبديع (وعليه) تجريد البناني – " مطبعة محمد علي صبيح "
* **مدارج السالكين من منازل إياك نعبد وإياك نستعين** لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين بن القيم الجوزية تحقيق محمد حامد الفقي مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥-١٩٥٦

* **مسند الإمام أحمد بن حنبل :-**

أ-المكتب الإسلامي بيروت ،

ب- تحقيق أحمد محمد شاكر الطبعة الثالثة دار المعارف سنة ١٩٤٩ .

* **مشكل إعراب القرآن** مكي بن أبي طالب تحقيق حاتم صلاح الضامن الثانية ١٤٠٥ مؤسسة الرسالة بيروت

* **معاني القرآن** لأبي جعفر النحاس

* **المعجم الكبير** للحافظ سليمان بن أيوب الطبراني

* **مفاتيح الغيب** للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي الناشر دار الغد العربي الأولى ١٤١٣-١٩٩٣

***المفردات** لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني تحقبق محمد السيد الكيلاني طبعة الحلبي ١٣٨١هـ ،١٩٦١ م

الفهرس